ميغيل دِ ثربانتس

زواج بالخديعة
و
حديث كلبين



ترجمة: علي ابراهيم أشقر

زواج بالخديعة

و

حديث كلبين



Author: **Miguel de Cervantes**

اسم المؤلف: ميغيل دِ ثربانتس

Title: **The Deceitful Marriage & The dialogue of Two Dogs**

عنوان الكتاب: زواج بالخديعة وحديث كلبين

Translator: **Ali Ibrahim Ashkar**

ترجمة:علي ابراهيم أشقر

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2017**

الطبعة الأولى: 2017



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

ميغيل دِ ثربانتس

زواج بالخديعة

و

حديث كلبين

ترجمة : علي ابراهيم أشقر



ثربانتس وعصره

هذه الصفحات ليست مقدّمة. فبعد أن قدّم المؤلف نفسه للقارئ، وقدّم الناقد آنخِل بلبوينا القصة للجمهور، لا يحق لي أن أكتب مقدمة أخرى. وإنما أريد فقط أن أذكّر القارئ العربي ببعض المحطات الهامة في حياة ثربانتس المتقلبة، وعلاقة أدبه بعصره.

ولد ميغيل دِ ثربانتس[1] وسآبيدرا (Miguel De Cervantes y Saavedra) عام ١٥٤٧ في مدينة قلعة هيناريس. ولا نعلم شيئاً مؤكداً عن طفولته. وإنما نعرف أنه تلقى دراسته في مدريد بين أعوام ١٥٥٦ – ١٥٦٩. ثم انخرط في سلك الجندية، وأصيب في معركة ليبانتو البحرية التي جرت بين الأسطولين الإسباني والعثماني عام ١٥٧١، بجرح بليغ في صدره ويده اليسرى أدّى إلى شللها. في طريق العودة من إيطاليا، وقع قاربه في أسر البربر الجزائريين ومكث في الأسر خمسة أعوام ونصف العام، لم يترك أثناءها وزيراً أو مسؤولاً إلا وتوجّه إليه طالباً مساعدته في فكّ أسره، دون جدوى، حتى قامت بعض الجمعيات

١– إنّ حرف (ڤ – V) يُلفظ في الإسبانية كالباء تماماً خلافاً للغات الأوروبية الأخرى، وهو يوافق اللفظ العربي فأثبتناه. وسآبيدرا كنية أمه، هي عادة في إسبانيا أن تُضم كنية الأم إلى كنية الأب أحياناً. (المترجم).

الخيرية الدينية بمساع من أسرته، بافتدائه لقاء مبلغ ضخم. كتب في الأسر بعض المسرحيات القصيرة. وفي عامي ١٥٨١ - ١٥٨٢ تعرّف في لشبونة إلى السيدة آنا فرانكا، وكان له منها بنت غير شرعية هي إيزابيل دِ سآبيدرا. تزوج عام ١٥٨٤ ونشر الجزء الأول من قصته الرعوية (لاغالاتيا).

عمل بين عامي ١٥٨٧ - ١٥٨٩ مفوضاً من أجل إمداد الأسطول (الأرمادا)، والجيش بالمؤن. وفي ذلك الوقت أبدى آراءً جلبت عليه رقابة الكنيسة. وطلب عام ١٥٩٠ إلى الملك أن يعيّنه في منصب رفيع في أميركا، فرُفض طلبه، لكنه عمل جابياً عام ١٥٩١ - ١٥٩٢، وكان يسير متنقلاً من قرية إلى أخرى لقاء مبلغ زهيد حتى أُودع السجن بتهمة الخلل في حساباته المالية.

وعاد في عام ١٥٩٤ إلى مدريد، وعُين في منصب جباية الضرائب في غرناطة. وأُودع السجن مرة أخرى بتهمة اختلاس ٢٦٤١ ريالاً. طُلب للمثول أمام محكمة في بلد الوليد، فأُطلق سراحه. كان أنجز كتابة الجزء الأول من «الدون كيخوته ديلامانشا» الذي ظهر عام ١٦٠٥ وطُبعت منه خمس طبعات في سنة واحدة. أُودع السجن مرة ثالثة، هو وجميع أفراد عائلته بسبب العثور على قتيل عند باب داره. لكنه ما لبث أن أخلي سبيله؛ ثم استقر في مدريد، واستمرت ضائقته المالية. وفي عام ١٦٠٧ ظهرت له عداوات شخصية بين رجال الأدب، خاصة لوبه دِ بيغا المسرحي المشهور. تُرجم «الدون كيخوته» إلى معظم اللغات الأوروبية. ثمّ نشر عام ١٦١٣ «القصص المثالية». وفي عام ١٦١٤ كتب «السفر إلى البرناس». فوجئ بظهور الجزء الثاني (المنحول) من «الدون كيخوته» باسم ألونسو فيرنانديس دي أبيانيدا. كتب عام

١٦١٥ ثماني مسرحيات طوالاً، وثماني مسرحيات من نوع الإنترميس (Entermes)[٢]، والجزء الثاني من «الدون كيخوته». في عام ١٦١٦ سقط فريسة المرض وتوفي في ١٣ نيسان في مدريد. ظهرت قصة برسيليس وسيخيسموندا بُعيد وفاته. ولايزال المكان الذي يضم رفاته مجهولاً.

وتُبين لنا هذه النبذة أن ثربانتس عاش الشطر الأعظم في حياته في القرن السادس عشر. لكن نقاد الأدب ومؤرخيه يعدّونه عن حق، من كتاب القرن السابع عشر. والحق أن ثربانتس يمثل بأدبه وحياته مرحلة انتقالية. فعصره كان عصر انتقال. وهو ككل عصور الانتقال، ساده الاضطراب الاجتماعي والاقتصادي، والخلل في القيم والمبادىء. هذا العصر شهد انكساراً في مسيرة النهضة الإسبانية وانكفاء أو تحولاً إلى مسار آخر. وذلك بسبب تأصل «وعمق أفكار الإصلاح الديني المضاد»[٣]. فلم يعد الإنسان يحتل مركز الصدارة في الكون، مذ عادت

٢- مسرحية فكاهية شعبية ذات فصل واحد قصير، تُقدّم بين فصول المسرحية الأصلية. لفهم الموضوع، نذكر أن المسرح الإسباني كان ينقسم في ذلك العصر إلى ثلاثة أقسام: مسرح البلاط، والمسرح الكنسي، ومسرح الأفنية والباحات أو مسرح الشعب. إذ كانت المسرحية تقدم في باحة أو فناء خلفي بين عدد من المباني. لم يكن للمسرح ستارة أمامية. وكان المتفرّجون إما أن يجلسوا على الكراسي، أو يقفوا على أرجلهم ، أو يركبوا الدواب، أو ينظروا من الشرفات المطلة. خشبة المسرح تظل مشغولة بين الفصول بفرق تقوم بالرقص والغناء، أو تمثيل فقرات بسيطة هي التي نسميها إنترميس. ثربانتس أبرع من كتب في هذا الفن، يسخر منه سخرية لاذعة في «حديث كلبين». (المترجم).

٣- غارثيا لوبيث: تاريخ الأدب الإسباني. وكذلك ما ورد بين مزدوجتين في هذه الصفحات من التمهيد.

فكرة «الخطيئة الأصلية» لتستقر في أذهان الناس من جديد. يعزز من تجذرها ورسوخها نفوذ محاكم التفتيش وسطوتها. فتحطَّم الحلم الإنساني الجميل بأن (الإنسان) مفطور على الخير والطيبة، وحلّت محله خيبة أمل كبرى. فكرة أو مذهب «خيبة الأمل» صارت لبّ التفكير الخلقي عند مفكري وكتاب القرن السابع عشر الذي هيمنت عليه صورة الموت وهشاشة الوجود الإنساني، ومظهر الأشياء المخادع، فالحياة حلم أو «تمثيلية صغيرة» خالية من القيم الخلقية. ولنقل: حل التشاؤم العميق محل التفاؤل العريض، وكفّت الطبيعة عن أن تكون مصدراً للإلهام، وموطناً للجمال، وباعثاً على الفرح؛ وإنما صارت مثالاً للنفور والقبح. فالأديب إما أن يشوهها، أو يُبدل بها طبيعة فنية مغايرة ونافية لها.

لكن تحطم الأحلام، والشك وخيبة الأمل لم تمنع الناس من الانكباب على الملذات الحسية دون كابح، والوقوع في أحضان «أحط أشكال المادية»؛ ساعد على ذلك الفوضى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. فالطبقات العليا استسلمت لنوع من «الحياة الرخوة» تحدوها رغبة جارفة في البذخ والملذات. أمّا الطبقات الدنيا، فقد كانت في وضع سيء للغاية، تمثّلت في جيش من العاطلين والجنود المسرحين والمتسولين والجانحين بسبب «إهمال السلطات»، والحروب الطاحنة التي خاضتها إسبانيا في أوروبا والبحر المتوسط وشمال أفريقيا وأمريكة. إنه قطاع اجتماعي عريض ضربه الجوع والبطالة «والرذيلة؛ وتحركه دوافع متدنّية وغرائز وحشية».

والأساليب الفنيّة في هذا العصر خضعت لعامل التغير نفسه، فابتعدت عن البساطة والانسجام؛ وراحت تبحث عما يثير الدهشة والتضاد والتناقض الحاد، والمبالغة المفرطة عند البعض؛ وتعقيد الأسلوب حتى

الغموض الذي يحجب الصورة أو الفكرة الحقيقية، أو الخطوط في العمارة، وراء فيض من الصور والاستعارات والإشارات الميثولوجية، والزخرفة الهندسة.

إنه العصر الباروكي[٤]، عصر انكفأت فيه إسبانيا وانكمشت على نفسها، وأدارت ظهرها لأوروبا والنهضة. لذلك، يعدّه الإسبان العصر الذهبي في الأدب أو العصر الإسباني الأصيل، خلاف عصر النهضة «المستورد».

ثربانتس يجمع بين فنّي عصر النهضة وعصر الباروك. فهو بتكوينه الثقافي والفكري ينتمي إلى عصر النهضة. فالمثالية والأفلاطونية، والإيمان بالطبيعة، سمات تصبغ جانباً هاماً من أدبه. لكن ظروف حياته والأحداث التاريخية في عصره، غطت مع مرور الزمن على «رموز النهضة»، وقادته إلى فكرة خيبة الأمل الباروكية . فموقف ثربانتس النقدي والريبي ووعيه «بالقيمة المزدوجة للأشياء يمثل خطوة متقدمة نحو الباروكية». ومع ذلك، لا الشك ولا خيبة الأمل دفعت به إلى التشاؤم «فتجربته المؤلمة لم تولد عنده مواقف سلبية». فظلت فكاهته سليمة خالية من المرارة؛ وهي بدلاً من أن تهدم، «ترفع وتُعلي من شأن كل ما تلمسه لأنها تتجذر في إحساس من الفهم الصحيح».

أسلوبه ولغته يقفان أيضاً بين عصري النهضة والبارّوك. فهو بميله إلى ما هو سهل مطبوع، وبعيد عن التكلف والتعقيد، يمتثل لقواعد عصر

٤ – يرى الناقد الإسباني أوخينيو دورس يؤيده في ذلك آليخو كاربنتيير أنّ الباروكيّة روح وليست أسلوباً. وقد عرفتها الحضارات كلها في جميع العصور، حين تبلغ أوج مجدها وازدهارها. (المترجم).

النهضة، لكنه في بعض السمات كالتضاد المستخدم في الدون كيخوته بكثرة، «ينبئ بما ستكون عليه أساليب عصر الباروك».

كتب ثربانتس الشعر والقصة والرواية والمسرحية لكنه نبغ في الرواية والقصة ومسرح الإنترميس.

هاتان القصتان / «زواج بالخديعة» و«حديث كلبين» / تشكلان عملاً واحداً، وهما مأخوذتان من مجموعة (القصص المثالية) التي تبلغ خمس عشرة قصة. أثبتنا مقدمة ثربانتس للمجموعة كلها، ثم مقدمة الناقد آ. بلبوينا الخاصة بهاتين القصتين المذكورتين.

مقدمة للقارىء
بقلم المؤلف

كنت أرغب، لو أُتيح لي أيها القارىء الغالي، في أن أُعفي نفسي من كتابة هذه المقدّمة. فبعد أن كتبتُ مقدمة للدون كيخوته، لم تعد لديّ رغبة في أن أثنّي بواحدة. والذنب في ذلك يقعُ على عاتق صديق من أصدقائي الكثيرين الذين جمعتني بهم، خلال حياتي، الظروف وليس النباهة. ذلك الصديق كان بإمكانه، كما جرى العرف والعادة، أن يحفر لي صورة ويطبعها على غلاف هذا الكتاب؛ لأن الرسّام المشهور / دون خوان خاؤورغي/ سلّمه رسماً لي؛ بذلك، كان أشبع طموحي، ورغبة بعض الناس في أن يعرفوا شكل وجه، أو قامة من يتجاسر على أن يعرض هذه الإبداعات في ساحات العالم وبمرأى من الناس، كاتباً تحت الصورة: «هذا الذي ترونه هنا مستطيلَ الوجه، كستنائيَّ الشعر، صَلْت الجبين، مرحَ العينين، أعقف الأنف وإن كان جيّد التناسق؛ أبيض اللحية التي كانت منذ عشرين عاماً ذهبية؛ كبير الشاربين، صغير الفم؛ أسنانه ليست دقيقة ولا كبيرة، لأنه ليس له منها غير ست؛ وهي في وضع سيء، وأسوء منه انتظامها، لأنها لا تتناظر الواحدة والأخرى؛ جسمه رَبْلٌ، ليس كبيراً ولا صغيراً؛ لونه حيّ كان أبيض قبل أن يصبح أسمر؛ كتفاه فيهما شيءٌ من الانحناء، وفي وقفته بعض الاضطراب. أقول: هذا هو

وجه مؤلف لاغالاتيا، والدون كيخوته ديلامانشا؛ وكاتب السفر إلى البرناس، تقليداً لسفر ثيسار كابورال بريروسينو، وأعمالٍ أخرى مُهملة هنا حتى يسقط منها اسم مؤلفها، يُدعى: ميغيل دِ ثربانتس وسآبيدرا. عملَ سنين طوالاً جندياً، وظل في الأسر خمسة أعوام و نصف العام. وفي الأسر تعلّم الصبر على الشدائد. وفقد في معركة ليبانتو البحرية يده اليسرى[٥]. جُرحٌ وإن بدا لك قبيحاً، لكنه يراه، هو، جميلاً؛ لأنه أصيب به في أعزّ معركة وأبقاها. معركة لم تَرَ القرون الخوالي مثلها؛ ولا يُنتظر أن ترى القرون القادمة نظيرها، مقاتلاً تحت الرايات المظفّرة لابن صاعقة الحرب: كارلوس الخامس، سعيد الذكر[٦].

ولو أن صديقي الذي أشكوه لم يخطرْ بباله شيء آخر غير ما ذكرت لأعنْتُه بدَستْين من الشهادات لصالحي، أُلقي بها إليه سراً، فتزداد شهرتي، وتترسخ بذلك عبقريتي. لأن الزعم بأن كلمات التقريظ تقول الحقيقة بدقة، هو لغو من القول. فلا الحمدُ ولا الذمّ، يعرفان نقطة معينة أو حداً يقفان عنده.

أمّا وإنّ هذه الفرصة فاتت، وظللْتُ عُطلاً دون صورة لي، فصار من الملحّ أن أعتمد على إزميلي[٧]، هو وإن كان أخرس، فليس كذلك في قول الحقيقة التي تكفي الإشارة إليها حتى تُعرف. وهكذا أقول

٥- الحقيقة هي أن يده شلّت من جرح أصيب به. ثربانتس كان يغذّي الإشاعة بأنها مقطوعة، لذلك كان يُدعى بين الناس بالأقطع. (المترجم)

٦- يقصد الملك فيليبه الثاني. وهو ابن الإمبراطور كارلوس الخامس.

٧- يقصد قلمه. آثرنا إبقاء اللفظة كما أوردها المؤلف دلالة على الحدّة التي تتميز بها هذه المقدّمة. (المترجم)

لك أيها القارىء العزيز، إنك لن تستطيع أن تجد في هذه القصص التي أقدمها إليك، مُنكراً. فهي ليس لها قدمٌ ولا رأس، ولا أحشاء ولا شيء آخر يجعلها ذات صلة به. أعني أن كلمات الحب التي ستلقاها في بعض منها، شريفة، متوافقة مع الفكر والمنطق المسيحيين. ولا يمكنها أن تدفع باتجاه سوء النية عند قارئها، غافلاً كان أم نبيهاً[٨].

أطلقت عليها اسم مثالية[٩]. ولو تأمّلتَها جيداً، فلن تجدَ واحدة إلا وتستمدّ منها مثالاً نافعاً. ولولا الإطالة لبينتُ لك المغزى الشريف الهام الذي يمكن أن يُستخرج منها منفردةً أم مجتمعة.

نيتي كانت في أن أضع في ساحة بلدنا طاولة لعب حيث يستطيع كل امرئ أن يلهو دون ضرر. أقول دون ضرر للروح أو للجسم، لأن التمارين الشريفة والمحببة تنفع ولا تضر.

أجلْ؛ المرء لا يكرّس وقته للعبادة دائماً؛ ولا لتعلُّم الأدب والخطابة؛ ولا لعقد الصفقات مهما تكنْ صفتها. هناك ساعات للترفيه، تستريح فيها الروح المحزونة.

لأجل ذلك تُزرع الممرات بالأشجار، وتُقصد الينابيع؛ وتمهد السفوح؛ وتُقام الحدائق بأناقة وظرف. شيء آخر سأجرؤ على البوح به: لو أن قراءةَ هذه القصص أفضَتْ بشكل أو بآخر، إلى الحضّ على رغبة سيئة أو تفكير باطل، فلم يكن ذلك قصدي، ولكنتُ قطعتُ يدي التي كتبتها بها قبل أن أبرزها للجمهور. سنّي لا تسمح لي بأن أسخر

٨- الخطاب في هذا الموضوع وفي غيره موجّه إلى رقابة محاكم التفتيش. (المترجم).

٩- اسم المجموعة الكاملة التي أخذنا منها هاتين القصتين. (المترجم).

من الحياة الآخرة. ففي سن الخامسة والخمسين[10] أعملُ على أن أفوز بها وأسبق.

على ذلك انصبّت قريحتي، وإلى ذلك قادني ميلي. وحسب فهمي (وهو صحيح) إني أول من كتب رواية باللغة القشتالية. لأن القصص المكتوبة بها، كلها مُترجمة عن اللغات الأجنبية. أمّا قصصي، فهي من تأليفي، وليست مقلّدة ولا منحولة. أبدعتها قريحتي، وأنشأها قلمي، وترعرعت بين أذرع المطبعة. وإذا بقيت على قيد الحياة، فسأوافيك بعدها: بأعمال برسيليس. كتاب له الحق في أن يزُاحم هيليودورو، إذا لم يحالفه سوء الحظ. وسترى أولاً منشورةً باختصار بطولات دون كيخوته ديلامانشا[11] وفكاهات سانشو بانثا. ثم (أسابيع الجنان). أعدُ كثيراً، رغم قواي الخائرة الضعيفة. لكن، من يستطيع لجْم الرغبات؟ أريدك فقط أن تضع في حسبانك: أن هذه القصص تتضمّن سرّاً نهض بهذه القوى، فأمدتني بالشجاعة لأتوجه بها إلى الكونت الكبير ديليموس. لا أزيدك شيئاً سوى أن يرعاك الله، ويلهمني الصبر لأتحمل سوء ما سيقوله عني أكثر من متحذلق متأنق.

م. ثربانتس

١٠- هكذا وردت في الأصل. وأحسبها الخامسة والستين. لأن تاريخ نشر القصص كان عام ١٦١٣. وكان ثربانتس في تلك الأثناء قد انخرط في سلك الرهبنة الفرنسيسكانية. (المترجم).

١١- يقصد الجزء الثاني من هذه الرواية. (المترجم).

مقدمة

بقلم: آنخِل بلبونيا

فِي قصّتَي «زواج بالخديعة»، و«حديث كلبين» يسود عنصر (البِيْكرِيْسك)[١٢]، والعملان يشكلان وحدةً أدبية واحدة. فقصة (الزواج) مدخل بيكريسكي صارخ إلى البناء الكامل والأصيل والفانتازيا الخلاقة، ألا وهو (حديث كلبين)، الذي نعدّه الشكل الأمثل لفن القصة القصيرة عند ثربانتس.

العلاقة بين العملين ومواضع بلد الوليد: مشفى القيامة حيث

١٢- نوع من القصص ساد في إسبانيا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. كانت بدايته على يد مؤلف مجهول (١٥٥٥ م). ثم كتب على منواله كبار كتاب إسبانيا بعد نصف قرن من ذلك. بطل القصة شخص يدعى البِيْكرُو Picaro.

والبيكرو: فتى ذكي ظريف، ماكر، ساخر يعيش بالحيلة، وينتقل من هذا العمل إلى ذاك، ومن يد سيد إلى يد سيد آخر. خلال تطوافه يرسم لنا صورة حيّة لأحوال المجتمع وعادات الناس بفكاهة وظرف.

بعض المترجمين أطلق على قصة البيكاريسكا (Picaresca) اسم قصص الحرافيش أو الصعاليك، أو العيّارين إلخ... كل هذه التسميات لا تنطبق تمام الانطباق عليها. الأفضل الإبقاء عليها كما هي على أنها اسم علم، إذا كان النقاد الإسبان أنفسُهم غير متفقين على مصدر الكلمة. (المترجم).

أقام بطل قصة «الزواج»، وكلبي الأخوين كاباتشا، صاحبي الحوار المشهور، تثبت أن القصتين كُتبتا فيما صار عاصمة إسبانيا للمرة الثانية بين عامي ١٦٠١ - ١٦٠٥. ثربانتس كان فيها حوالي ١٦٠٣ ليقدم كشفاً بالأموال التي جباها وتأخر في تسديدها إلى محاسبي أملاك الملك، وأودع السجن بسببها في إشبيلية. أُطلق سراحه ليمثُل من جديد أمام محكمة في بلد الوليد. عائلة ثربانتس استقرت في تلك المدينة حوالي ١٦٠٤. ويُفترض أن المؤلف سبقها إليها لاستدعائه على عجل. (آميثوا) درس بدقة وكفاءة الوسط الذي عاش فيه ثربانتس وأتاح له تأليف هذه القصة. (وإيكاثا) يؤكد أيضاً صحة التفاصيل في العملين.

آميثوا يتصور بمهارة اللحظة التي خطرت ببال ثربانتس العاطل عن العمل والمتأمل، فانتازيا (الحديث) العجيبة، وهو يرى كلبي لاكاباتشا في نزهتهما الليلية: «الساعة التي يخرجان فيها، وظلمة الليل الذي ينتشر، وضياءُ القناديل الغامض الذي يلوح من بعيد، يجعل من نزهتهما أشدّ إثارة، وأشحذ للخيال القصصي. وداعتُهما وإخلاصهما لصاحبهما ماهوديس، ثم تلك الآثار الحية من غريزة تقودهما إلى أماكن معلومة، شكلّت مجموعة من الظروف، من شأنها على شكل خاص أن تلفت انتباه أولئك الذين جعلوا من الحياة حقلاً عريضاً للملاحظة، ودراسة مستمرة وهادئة لأدقّ حوادثها وأخبارها. ألا يُحتمل أن يعثرا خلال جولتهما اليومية الطويلة بسيد يُطلُّ بجذعه من النافذة، ويُلقي بنظره الثاقب عليهما؟ أو أن يلتقيهما هو كثيراً حين يعود إلى مقر إقامته، ويقف دَهِشاً، ويقدح شرارة الخيال، أو ما لا أدري من شيء غامض مبهم ينبثق في رأسه مثيرًا لواعج الذكريات الماضية والأحداث القديمة، ليجدد آلاماً وهموماً دفينة؟».

حول مصادر القصة، تُذكر اليوم قصةُ الحمار الذهبي لأبوليو. في الواقع، لا رابطة تربط هذه القصة بقصة ثربانتس الذي يذكرها عمداً. إنْ دلّ هذا على شيء، فإنما يدل على شهرة تلك الأسطورة وشعبيتها. مينيندث إيبلايو يرى: «أن من جعل الكلبين ثيبيون وبرغانثا يتكلمان، هو وريث وتلميذ الحذّاء سيميلو. لأن الكلبين يتحدثان بالمنطق والظرف ذاته، وبالفلسفة الحلوة الخيّرة التي يتحدث بها الحذّاء وديكه».

إذاً، أصالة ثربانتس فائقة للغاية. مصدرُ القصة الحي هو مجالُ الملاحظة نفسه الذي يتجذّر في تجربة الكاتب الذاتية، ومحيطه الاجتماعي. يقارن آمثيوا الوضع التاريخي لذلك العصر، الذي عاشه ولاحظه ثربانتس بالأحداث المختلفة التي يذكرها برغانثا: حي المسلخ، ومدرسة جمعية يسوع، وحياة الطلاب، وأوساط القضاة والكتبة، ومخالفاتهم القانونية، والكيميائيين، ومحققي الضرائب والموريسكيين والساحرات.

حادثة السحر، أو قصة لاكاماتشا، ربما كانت أبرز ما في «الحديث». كان ثربانتس في مونتيّا حوالي عام ١٥٩٢ حين كان يعمل جابياً. وهناك، علم بقصة لاكاماتشا المشهورة التي أوقعت في حبائل سحرها الأسود سيداً يدعى ألونسو فرناندو دِ كوردوبا. فعاقبت محاكم التفتيش الساحرات وأمرت بجلدهن. حدث كل ذلك بين عامي ١٥٥٥ - ١٥٥٧ تقريباً. في قصة ثربانتس، حكاية الساحرة لاكانيارث تجري في مونتيّا. وهذه الساحرة تعدّ نفسها من تلميذات لاكاماتشا العظيمة، وتحكي لنا عن مهاراتها العجيبة. ويمكننا أن نجد عند ثربانتس أيضاً أصداءً من أخبار تجمعات السحرة المشهورة في نابارّا، خاصةً تجمع عام ١٥٩٠.

توركيميدا وصف في كتابه «حديقة الأزهــار الظريفة» تلك السهرات الشيطانية التي تقوم بها الساحرات، فلعله أمدّ ثربانتس في هذا الفصل ببعض التفاصيل الثانوية. لكن نموذجه الحي كان التطيّرات والمعتقدات الشعبية التي التقطها أثناء طوافه في القرى والبلدات لجباية الأموال. ويمكننا اليوم الاطلاع على تفاصيلها في القضايا التي كانت ترفعها محاكم التفتيش آنذاك على السحر والساحرات. آميثوا رسم بمرح وطرافة، في طبعته «الحديث»، صورةً حية لأعمال السحر استناداً إلى التفاصيل والكلمات والرُّقى المحفوظة في نصوص محاكم التفتيش. فصعّد ثربانتس بفنّه الشفاف والعظيم كل هذه المواضيع الشعبية.

تاريخ كتابة «حديث كلبين» لا يمكن أن يكون سابقاً على عام ١٥٩٩ تاريخ ظهور مسرحية أركاديا للوبه دِ بيغا المذكورة في النص؛ ولا متأخّراً عن عام ١٦٠٩، تاريخ طرد الموريسكيين التي يعبّر النص أيضاً عن رغبته في ذلك. إذاً، علينا أن نُرجعه إلى وقت إقامة ثربانتس في بلد الوليد، وكانت حسب آميثوا، بين ١٦٠٣ - ١٦٠٤، «وقبل ربيع عام ١٦٠٥».

أما بشأن الأسلوب، فإن آميثوا نفسه يؤكد: «لغة (حديث كلبين) أصحّ من لغة الجزء الأول من الدون كيخوته ديلامانشا. لكنها لا تصل في مجملها إلى تلك الدرجة من الوضوح والصقل كما نجده في قصة برسيليس وسيخسموندا. ويمكن وضعها بين كلا العملين. وتلك نتيجة طبيعية في مسيرة ثربانتس الفنية».

زواج بالخديعة

كان أحد الجنود خارجاً من مشفى القيامة في بلد الوليد الواقع وراء باب ديل كامبو. اتكاؤه على سيفه كأنه عُكّاز، ونحولُ ساقيه، وصفرة وجهه تدلُّ على أنه تعرّق[١٣]، وإن كان الطقس غير حارّ، خلال عشرين يوماً كل السائل الذي اكتسبه خلال حياته. كان يسير بخطا وئيدة متعثّرة شأن كل ناقه. لما دخل باب المدينة، رأى أحد أصدقائه يُقبل صوبه. منذ ستة أشهر، لم ير ذلك الصديق الذي راح يرسم شارة الصليب وكأنه يرى شبحاً سيئاً. ولما دنا منه قال له:

- ما لك، يا صديقي الضابط، كامبوثانو؟! أيُعقل أن أراك في هذه الأرض؟ كنت أحسبك في بلد الفلاندر تلاعب الأسنّة؛ وها أنا أراك هنا تجرّ سيفك؛ ما لوجهك شاحباً؟ وما لجسمك ناحلاً؟

وعلى ذلك أجاب كامبوثانو:

- أمّا بشأن وجودي في هذه الأرض يا سيد بيرالتا، فرؤيتي فيها هي الجواب. أما الأسئلة الأخرى، فليس لديّ ما أقوله سوى أنني خرجت

١٣- تناول دواء للتعرق. وهو نوع من العلاج كان يستخدم قديماً، ويعتمد على إعطاء المريض دواء يساعد على إفراز العرق بغزارة. (المترجم).

من ذاك المشفى حيث عُولجت بالتعرّق من أربع عشرة مصيبة، سبّبتها لي امرأة اخترتها زوجاً لي، وما كان ينبغي لي.

- أتزوّجت أخيراً، يا سيدي؟ - أجاب بيرالتا.

- نعم يا سيدي المجاز. - ردّ كامبوثانو.

- لعله زواج حب. - قال بيرالتا - أمثال هذا الزواج تجلب معها وفي طيّاتها الندم.

فأجاب الضابط:

- لا أعلم إن كان زواج حب. لكنني أعرف أنه زواج آلام. لأنني من هذا الزواج أو التعب، حملتُ كثيراً منها في جسمي وفي روحي. علاج آلام الجسم وحدها كلّفني أربعين تعرّقاً. أمّا آلام الروح فلم أجد لها علاجاً يخفّف عني منها. واعذرني، فأنا لا أحب الأحاديث المطوّلة في الشارع. في يوم آخر سأقصّ عليك، وأنا أكثر ارتياحاً، أخباري التي هي أغرب وأعجب مما سمعته كل حياتك.

- لن يكون الأمر هكذا. - قال المجاز - وإنما أريد أن تأتي معي إلى بيتي. وهناك نفضي إلى بعضنا بهمومنا. لديّ طعام من لحم وخضار صالح للمرضى، ويكفي رجلين اثنين. أمّا خادمي، فيكفيه قرص من المعجنات. وإذا كنت تعاني من فترة النقاهة، فإن شرائح لحم خنزير روتِه، ستفتح الشهية، خاصة أنها مشفوعة بنية حسنة أعرضها عليك ليس هذه المرة، وإنما كل المرات التي ترغب فيها.

شكره كامبوثانو وقبل الدعوة والعرض، واتجها معاً إلى كنيسة سان

لورنثو حيث حضرا القداس. واصطحبه بيرالتا بعد ذلك، إلى بيته، وقدّم له ما وعده به وكرر عليه العرض. وبعد أن فرغا من الطعام، طلب إليه أن يروي له أخباره التي ازداد شوقاً لمعرفتها. وما كان كامبوثانو يحتاج إلى رجاء. وبدأ حكايته على الشكل التالي:

- لعلك تتذّكر يا صديقي بيرالتا، أن لي رفيقاً في هذه المدينة، هو النقيب بدرو هيريرا الموجود الآن في الفلاندر.

- اذكره جيداً. - أجاب بيرالتا.

وتابع كامبوثانو:

- ذات يوم، كنا فرغنا من تناول الطعام في مقرّ إقامتنا في فندق سولانا، حين دخلت امرأتان ذواتا مظهر حسن تتبعهما خادمتان. راحت إحداهما تتحدث إلى النقيب وقوفاً عند النافذة، وجلست الأخرى على مقعد قريب مني، وقد ألقت الخمار حتى ذقنها، دون أن تكشف عن وجهها إلا ما تسمح به رقّة النسيج. رجوتها أن تجاملني فتسفر عن وجهها. فلم أستطع حملها على السفور مما أضرم الرغبة فيّ في أن أراها، وزادها اضطراماً أن مدت يداً ناصعة البياض مزدانةً بالخواتم، إمّا حيلة منها أو مصادفة. مظهري كان في غاية الغرابة: بتلك السلسة الكبيرة التي تتدلّى من عنقي كعهدك بها؛ وبقبعتي ذات الريش والشرائط وبملابسي الحمر كما هو حال الجنود؛ كنت مزهوّاً في أعين جنوني، حتى أُلقي في روعي أنني أستطيع الحصول عليها بيُسر. ومع ذلك، رجوتها أن تسفر؛ فأجابتني: «لا تكن لجوجاً. أنا لي بيت، فمُرْ أحد خدمك أن يتبعني. إنّي وإن كنت أشرف مما يشي به جوابي، يسرّني أن تراني على مهل وأرى أنا، إن كان عقلك بمستوى زهوك».

فقبّلت يديها للجميل الذي غمرتني به؛ ولقاء ذلك، وعدتها بجبال من ذهب. انتهى الحديث بين النقيب وصاحبته، وانصرفت المرأتان يتبعهما خادمي. قال لي النقيب إن السيدة كانت تريد أن يحمل رسائل منها إلى نقيب آخر في الفلاندر تزعم أنه ابن عمها. لكنّه يعلم أنه ليس ابن عمها، وإنما عشيقها. كنت ماأزال ألتهب باليدين الثلجيتين اللتين رأيتهما، ويقتلني الوجه الذي أرغب في رؤيته، وهكذا قادني خادمي في يوم من الأيام إلى منزلها. فأذنت لي في الدخول.

كان البيت في منتهى النظافة. وجدت فيه امرأة في الثلاثين من عمرها تقريباً. عرفتها من يديها. لم تكن بارعة الجمال، لكنها كانت جميلة بشكل يجعلها تُحب بالعدوى لأن صوتها رخيم ينفذ إلى الروح عبر الأذن. تبادلنا أحاديث غرام طويلة، وتباهيت، وتبجّحت ببطولاتي، وتخلّعت ووعدت وعملت كل العروض التي بدت لي ضرورية لجعلي مقبولاً في نظرها؛ كان يبدو عليها أنها تُصغي دون أن تصدّق شيئاً مما أقول، لأنها اعتادت سماع أشباه هذه العروض والحجج. وأخيراً، ظللنا نتبادل أحاديث الهوى أربعة أيام ما انفككت أزورها فيها، دون أن أصل إلى قطف الثمرة المشتهاة.

أثناء زيارتي لها، كنت أجد البيت خالياً دائماً، فلا يقع بصري على أقارب مزعومين، ولا أصدقاء حقيقيين. وإنما كانت تخدمها خادمة ماكرة أكثر مما هي ساذجة؛ أخيراً عرضتُ عليها حبي كما يفعل جنديّ عشية ارتحاله. وألحفت على سيدتي دونيا إستيفانيا دِ كايسيدو – وهذا اسمها كما ذكرته لي – فأجابتني: «سيدي الضابط كامبوثانو، ستكون سذاجة مني لو روّجت نفسي عندك على أنني قدّيسة. كنت خاطئة وما أزال؛ ولكن ليس كما ينمّ عني جيراني الأقربون، ولا كما يزعم الأباعد.

لم أرث عن أبويّ ولا عن أحد من أقاربي أي عقار. لكن أثاث منزلي إذا قُوِّم بشكل جيد، يساوي ألفين وخمسمائة إسكودو[١٤]. بهذه الملكية أبحث عن زوج أخلص له وأطيعه، باذلة جهداً خارقاً لإصلاح شأني، ولخدمته وإدخال السرور عليه في آن واحد. فلن تجد طباخاً ماهراً عند أمير ذوّاقة يعرف أن يضفي مذاقاً طيباً على الطعام خيراً مني، إن رغبت في التفرغ لهذا العمل. أعرف كيف أكون ربّة بيت، وصبيّة مطبخ، وسيدة صالون. باختصار، أعرف كيف آمر، وكيف أجعل الآخرين يطيعونني. لا أبذّر شيئاً، وإنما أوفر كثيراً؛ ولا أبخس الريال حقه، وإنما تزداد قيمته كثيراً حين يُصرف بإذني. هذه الثياب البيض التي ألبسها، وهي كثيرة وثمينة جداً، لم تُشْرَ من الدكاكين ومحلات البياضات، وإنما غزَلَتْها أصابعي وأصابع خادماتي. ولو كان بالإمكان أن تنسج في البيت لنسجتها. أذكر كل هذه الحسنات، كيلا تجلب اللوم عليّ، إذا دعتني الحاجة القاهرة لذكرها ذات يوم. باختصار، أريد القول، إني أبحث عن زوج يحميني ويأمرني ويشرفني، وليس عشيقاً يخدمني ويمنّني. فإذا أعجبك هذا العرض، فها أنا دونك، وجاهزة لكل ما تأمر به دون مساعي الخاطبات. فليس أصلح للاتفاق على كل شيء خيراً من أصحاب العلاقة ذاتهم».

في تلك الأثناء لم يكن عقلي في رأسي، وإنما في عقبيّ. بعثت كلماتها في نفسي سروراً بلغ ذروة ما كنت أتخيّلها. وتراءى أمام ناظري ذلك المقدار من الثروة التي كنت أحلم بها وقد تحوّلت إلى نقود، دون أن أقوم بأية محاكمة أخرى غير ما يروق لي أن أقوم به مُلقياً حجاباً على عقلي. فقلت لها إني سعيد ومحظوظ جداً أن أهدت إليّ السماء رفيقة

١٤- وحدة نقد وعملة إسبانية فضية قديمة، تعادل ٢،٥ بيزيتا.

مثلك لأتخذها سيدة رغبتي وراعية ثروتي، وهي لم تكن ضئيلة إذا قوّمت بهذه السلسلة المعلقة في عنقي، وتلك الجواهر الموجودة في بيتي، وبعض الثياب والحوائج الثمنية الخاصة بالجنود التي تساوي جميعاً أكثر من ألفي دوكادو[١٥]. فإذا ضُمت إلى الألفين وخمسمائة إسكودو الأخرى، قِوام ثروتها، لشكلت مقداراً كافياً يسمح لنا بالعيش في قريتي مسقط رأسي حيث كنت أمتلك بعض العقارات. ملكية إذا غُذّيت بالمال، وبيعت الثمار في أوانها، يمكنها أن تتيح لنا حياة سهلة ومريحة. باختصار، اتفقنا هذه المرة على الزواج؛ وحُدد لنا موعد في الكنيسة بعد عطلة الفصح التي دامت ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع تمّ عقد قراننا؛ وقد حضره صديقان من أصدقائي وشاب زعمت أنه ابن عمها، تقرّبتُ إليه بفيض من كلمات المجاملة مثل كل الكلمات التي كنت أقولها لزوجي بنيّة ملتوية غدّارة أرغب في السكوت عنها. أنا، وإن كنت أقول حقائق، فهي حقائق غير معلنة ولا يمكن الجهر بها.

نقل خادمي صندوقي من الفندق إلى منزل زوجي. ووضعت فيه أمام ناظريها، سلسلتي الرائعة وأريتُها ثلاثاً أو أربعاً أخريات ليست بكبرها، لكنها خير منها صنعة، يضاف إليها ثلاثة أو أربعة خواتم مرصعة بالأحجار، وذوات أشكال مختلفة، وكشفت لها حِليتي وزينتي التي أتزين بها؛ وسلمتها أربعمائة ريـال لنفقات البيت. تمتعت مدة ستة أيام بحلاوة الزواج، وأنا ألهو كصهر قميء في بيت حميِّه الثري. كنت أطأ بسطاً ثمينة، وأعبث بملاءات رقيقة، واستضيء بقناديل من فضّة، وأتناول الغداء في السرير، لأنني كنت أستيقظ في الساعة الحادية عشرة، ويُقدم لي الطعام في الثانية عشرة. وفي الثانية بعد الظهر، كنت أقضي

---

١٥ – عملة إسبانية ذهبية قديمة تعادل ٧ بيزيتات.

القيلولة في البهو. كانت دونيا إستيفانيا والخادمة تتفانيان في خدمتي. وخادمي الذي عرفته كسولاً بليداً، صار الآن كالغزال. وحين لا أجد دونيا إستيفانيا قربي، فلا بد من أن تكون في المطبخ آمرةً بطبخ أطعمة توقظ فيّ الرغبة وتنبه الشاهية. قمصاني وياقاتي ومناماتي كانت جديدة ومطرزة؛ من رائحتها تبدو أنها غُسلت بعطر ماء الكولونيا، ورُشّت بماء زهر الليمون.

مرت هذه الأيام سِراعاً، كما تمر السنون أو كل ما يخضع لحكم الزمان. ولما رأيت نفسي تلك الأيام مدللاً، ومخدوماً بشكل طيب، بدلت بنيّتي السيئة التي بدأت بها هذه الصفقة، نيّة أخرى حسنة جيدة. ذات صباح كنت والسيدة إستيفانيا، لانزال في السرير، فإذا بالباب المطلّ على الشارع يُدق دقات عنيفة. أطلت الخادمة من النافذة وابتعدت فوراً قائلة:

- أوه! أهلاً وسهلاً بها! أرأيتم كيف عادت أبكر مما كتبته إلينا ذلك اليوم؟

- من جاء يا فتاة؟ - سألتُها. وأجابت:

- من؟ إنها سيدتي دونيا كليمينتا بويسو. وجاء معها السيد دون لوبه ميلانديس دي المنداريس يرافقهما خادمان، وهورتيغوسا وصيفتها.

- أسرعي، يا فتاة. افتحي لهم. سأكون جاهزة خلال دقائق. - قالت عند ذلك إستيفانيا -. وأنت يا سيدي، بحقّ حبي لا تضطرب، ولا تجب عن أي سؤال تسمعه موجّهاً ضدي.

- لكن، من يجرؤ على أن يقول شيئاً يشينك أمامي؟ قولي لي: من هؤلاء الناس الذين أثار مجيئهم الاضطراب فيك؟

- ليس لديّ ما أجيبك به - قالت دونيا إستيفانيا -. لكن، اعلم أن كل ما يجري هنا مصطنع ويهدف إلى غاية ونتيجة ستعرفها فيما بعد.

كنت أرغب في أن أجيبها، لكنّ السيدة دونيا كليمينتا بويسو لم تُتحْ لي ذلك بدخولها القاعة لابسةً ثوباً حريرياً ضيّقاً، عليه كثير من شرائط الذهب؛ وترتدي سترةً من النوع ذاته، وعليها الزينة نفسها. وكانت تعتمرُ قبّعةً ذات ريش أخضر وأبيض وأحمر، يحيط بها شريط ثمين من الذهب؛ وتضع خماراً يغطي نصف وجهها. دخل معها السيد دون لوبه ميلانديس ده المنداريس. وهو لا يقلّ غرابةً في ترف ملابسه عنها. كانت الوصيفة هورتيغوسا أول من تكلم قائلة:

- يا إلهي! ما هذا؟ سرير سيدتي دونيا كليمينتا مشغول! ويشغله رجل أيضاً! إني أشهد عجائب في هذا البيت. لا شك في أن السيدة دونيا إستيفانيا تصرّفت كما تشاء اعتماداً على صداقتها لسيدتي.

- مؤكد، يا سيدة هورتيغوسا. - أجابت دونيا كليمينتا -. لكنّ الذنب ذنبي، ولن أغامر باتخاذ صديقات لا يقدّرن حق الصداقة إلا إذا كانت ملائمة لهن.

على كل ذلك، أجابت دونيا إستيفانيا:

- لا تقلقي يا سيدتي كليمينتا بويسو. واعلمي أن وراء ما ترينه في هذا البيت، سراً. وإذا عُرف، بُرّئت ساحتي وأُزيلت شكواك.

في تلك الأثناء، كنت أرتدي سراويلي وصدريتي. فأمسكت دونيا إستيفانيا بيدي وقادتني إلى غرفة أخرى، وقالت لي إن صديقتها تلك تريد أن تحتال على السيد لوبه الذي تنوي أن تتزوج به. والحيلة تكمن بإشعاره أن هذا البيت وكل ما فيه ملكها، وتريد أن تقدمه ضمانة «لدوطتها»[١٦]. وبعد إتمام القران، لن تأبه لانكشاف الخديعة اعتماداً منها على حبِّ دون لوبه الكبير لها. وبعد ذلك، يُعاد ما هو لي. ولن يَضيرها، أو يضير امرأةً أخرى أن تبحث عن رجل شريف ولو كان بالحيلة.

فأجبتها إن ما تقوم به أقصى ما تتطلبه صداقة كبرى. لكن، عليها أن تفكر في الأمر مليّاً. لأنها قد تُضطر بعدئذ إلى اللجوء إلى المحاكم لتستردّ ملكيتها. لكنها أبدت أسباباً كبيرةً وقدّمت مسوّغات تُلزمها بخدمة السيدة دونيا كليمينتا بأمور أخرى أهم من ذلك. فنزلت عند رغبة دونيا إستيفانيا خلافاً لرغبتي وكبتاً لتفكيري. وقد أكدت لي أن اللعبة ستدوم ثمانية أيام فقط، نقطن أثناءها بيتاً من بيوت إحدى صديقاتها. فرغنا من ارتداء ملابسنا. ودخلت هي لوداع السيدة كليمينتا والسيد لوبه، وأمرت خادمي أن يحمل الصندوق ويتبعها. ثم لحقت بهما دون أن أودّع أحداً.

توقفت دونيا إستيفانيا أمام بيت إحدى صديقاتها. ومكثت فترة طويلة تتحدث إليها قبل أن يؤذن لنا في الدخول. ثم خرجت إحدى الخادمات، وأشارت لنا أن ندخل. قادتنا إلى حجرة ضيقة، فيها سريران

١٦- (عند الفرنجة): المال الذي تدفعه العروس إلى عريسها. (نقلاً من المعجم الوسيط). (المترجم).

متلاصقان جداً، حتى كانا يبدوان سريراً واحداً. وما كانت تتوفر فسحة لإبعادهما عن بعضهما. واتحد الغطاءان حتى صارا غطاء واحداً.

مكثنا هناك ستة أيام. ولم تمرّ ساعة واحدة دون شجار، متحدثاً إليها عن الحماقة التي ارتكبتها بترك البيت وما فيه؛ وما كان يجب أن تفعل، ولو كانت دونيا كليمينتا أمّها. كنت أقضي الوقت وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ذات يوم، أدّعت دونيا إستيفانيا أنها ذاهبة لترى إلى أين وصلت صفقتها. فأرادت ربّةُ البيت أن تعرف مني السبب الذي يدفعني للشجار مع زوجي؛ وأي شيء فعلتْه حتى أوبّخها قائلاً لها أن ما قامت به غباءٌ واضح أكثر مما هو صداقة نزيهة. فقصصت عليها القصة كلها، وحكيت لها عن زواجي بالسيدة إستيفانيا؛ وعن «الدوطة» التي قدّمتها لي، وعن البساطة التي تخلّت بها عن بيتها للسيدة كليمينتا، وإن يكن بنيّة حسنة، لتحصل على زوج عظيم مثل دون لوبه. أخذت صاحبة البيت تتعوّذ، وترسم شارة الصليب بسرعة كبيرة قائلة: «الله! الله! ما أسوأ هذه المرأة!»، فأثارت فيّ اضطراباً كبيراً، وقالت لي أخيراً:

- «سيدي الضابط، لا أدري إن كنتُ أعمل ضد ضميري بأن أكشف لك ما يُثقل على ضميري نفسه، لو سكتُّ عنه. لكني سأقول، حباً بالله وبإسعادك، وليكن ما يكون: يعيش الحق! ويسقط الكذب! الحقيقة هي أن دونيا كليمينتا صاحبةُ البيت الحقيقية، ومالكة العقار الذي جعلته زوجك لك «دوطة». وكل ما قالته لك دونيا إستيفانيا كذب. فهي لا تملك بيتاً ولا عقاراً، ولا ثوباً آخر غير ما ترتديه. وقد أتيح لها الوقت والمكان لتركيب هذه الخديعة بذهاب دونيا كليمينتا لزيارة بعض أقاربها في مدينة بلْسَنْثيا، ومن هناك اتجهت لزيارة مقام سيدتنا العذراء في غْوادَ لَوْبه. خلال هذه الفترة، تركت البيت في عهدة

دونيا إستيفانيا، لأنهما في الحقيقة صديقتان حميمتان. لكننا، لو تمعّنا في الأمر جيداً، لعذرنا السيدة البائسة بأن عرفت أن تكسب زوجاً عظيماً في شخص السيد الضابط».

وهنا ختمت حديثها. وأخذ اليأس يدبّ إلى نفسي؛ ولكان غمرني، دون شك، لو تخلّى ملاكي الحارس عن نجدتي، مُلقياً في روعي أنني مسيحيٌّ مؤمن، وأن أكبر أخطاء البشر اليأس. لأنه خطيئة يوسوس بها الشيطان. هذا الاعتبار، أو هذا الإلهام الحسن أراحني قليلاً. لكنه لم يمنعني من لبس درعي وحمل سيفي. فخرجت باحثاً عن السيدة إستيفانيا لأعاقبها عقاباً يكون عبرة للآخرين. لكن الحظّ شاء ألا أجدها في أي مكان من الأمكنة التي خمّنتُ أن أجدها فيها. ولا أدري إن كان هذا الحظ يدفع بي إلى الأمام أو إلى الخلف.

توجهت إلى سان لورنثو، وفوّضت أمري لسيدتنا العذراء، وجلست على مقعد. ومن الغمِّ غرقت في نوم عميق، لم أستيقظ منه لو لم يوقظوني. قصدت بعد ذلك منزل السيدة كليمينتا، وقد مُلئتُ بالوساوس والآلام، فوجدتها على غاية من الانشراح. لم أجرؤ على أن أقول لها شيئاً لأنّ السيد دون لوبه كان حاضراً. وعدت إلى بيت مضيفتي. فقالت لي إنها حكتْ للسيدة إستيفانيا كيف علمتُ بعبثها وغشها. فسألَتها هذه كيف كان منظري حين سمعتُ الخبر. فأجابتها: كان سيّئاً جداً. وأنني حسب رأيها، خرجتُ باحثاً عنها وقد وضعتُ الشر نُصب عينيّ. قالت لي أخيراً، إنّ دونيا إستيفانيا حملت كل ما كان في الصندوق، دون أن تترك لي شيئاً غير ثوب للسفر.

تبّاً لها! وهكذا عدتُ بخفَّيْ حنين.

ألقيت نظرة على صندوقي فوجدته مفتوحاً كأنه قبر ينتظر جثة ميت؛ وكان ينبغي حقّاً وعدلاً، أن تكون تلك الجثة جثتي، لو كنت أملك الفهم للإحساس بمصيبتي، والإحاطة بحجمها.

– ما أخذته دونيا إستيفانيا كان ذا قيمة كبيرة، خاصة السلسلة والشرائط الذهبية. لكنها كما يقال عادة: كل الآلام... إلخ.

وأجبته:

– من هذه الجهة لا أحمل همّاً أبداً. لأنني أستطيع القول: الخادع مخدوع.

– لا أدري ماذا تقصد بهذا القول. – أجاب بيرالتا.

– قصدي هو أن كل هذه البهرجة والعدة من السلسلة إلى الشرائط والشعارات لا تساوي عشرة أو اثني عشر «إسكودو».

– هذا غير ممكن. – أجاب بيرالتا – لأن السلسلة التي كنتَ تضعها في عنقك تبدو أنها تساوي ما يزيد على مائتي دوكادو.

– وهي كذلك، لو اتفقت الحقيقة والمظهر. لكن، ليس كل ما يلمع ذهباً. فالسلاسل والشرائط والجواهر والشعارات كلها كانت صناعية. لكنها كانت متقنة الصنع فلا يستطيع كشف زيفها غيرُ النار أو خبير.

– إذاً، – قال المجاز – أنت والسيدة إستيفانيا سواء.

– سواء جداً حتى يصعب التمييز بيننا. لكن الضرر يا سيدي هو أنها تستطيع التخلصّ من سلاسلي وشرائطي، لكنني لا أستطيع التخلصّ من شرّ فعلتها. في الواقع، ما يحزنني أشد الحزن أنها شي عزيز عليّ.

فقال بيرالتا:

- احمد الله يا سيد كامبوثانو على أنّ هذا الشيء العزيز له قدمان وأنه يسعى بهما وأنك لستَ مرغماً على البحث عنه.

- كلامك صحيح. - أجاب الضابط - لكنني، مع ذلك، أجدها حاضرةً دائماً في خاطري ولو لم أبحث عنها. وحيثما توجهتُ أجد الإهانة ماثلةً أمامِ ناظري.

- لا أعرف بماذا أجيبك. لكنني أذكّرك ببيتين من الشعر لبتراركا، معناهما في الإسبانية: «من تعوّد خداع الآخرين، فليس له أن يشكو حين يُخدع».

- أنا لا أشكو. - قال الضابط. - وإنما أحزن على نفسي؛ لأنّ المذنب، ولو أقرّ بذنبه لا يكفّ عن الإحساس بألم العقاب. حقاً، أردت أن أَخْدَع فخُدعت لأنني جُرحتُ بسلاحي ذاته. لكنني لا أستطيع تجاوز الإحساس بأن أشكو نفسي. أخيراً، بغية الوصول إلى مغزى أعمق لقصتي (وأسمي هذه الأحداث قصة)، أقول إنني علمت أن دونيا إستيفانيا خطفها من زعمتُ أنه ابنُ عمها لمّا عُقد قراننا. فقد كان صديقها وخدينها منذ زمن بعيد. لم أرغب في البحث عنها لكيلا ألقى شراً لستُ بحاجة إليه. بدّلت فندقي، وبدّلت شعري خلال أيام قليلة. لأن شعر هدبيّ وجفني أخذ يتساقط. وشيئاً فشيئاً راح شعر رأسي يسقط أيضاً. وقبل أن أطعن في السن، صرتُ أصلع بسبب داء الثعلبة، أو لوبيثيا، وباسم أوضح بيلاريلا[17].

١٧- مرادفتان لداء الثعلبة في الإسبانية. (المترجم).

ووجدت نفسي غايةً في البؤس حقاً؛ وأصبحت دون لحية أسرحها وبلا مالٍ أنفقه. وكان المرض يتعقّب فقري. لأن الفقر يلوّث الشرف فيقود البعض إلى المشنقة، والبعض الآخر إلى المشافي، ويرغم آخرين على ولوج بيت أعدائهم متوسلين خانعين. غاية البؤس ما يمكن أن يحصل لشقيٍّ مثلي، بألا أستهلك في سبيل علاجي ثيابي التي لو تدثّرتُ بها، لتمتعت بالصحة، ولما اضطررتُ إلى دخول مشفى القيامة حيث أخذت أربعين تعرّقاً. قيل لي بعدها إنني سأشفى إذا عُنيت بنفسي. أملك سيفاً، وما خلا ذلك، فحسبي الله.

جدّد المجاز عليه عرضه؛ وأبدى دهشته مما قصّه عليه.

- أنت تدهش لأمر بسيط، يا سيد بيرالتا. - قال الضابط. - هناك أحداث أخرى لم أقلها، تتجاوز مجال الخيال، لأنها تقع خارج الحدود المألوفة. لا تطلب معرفة المزيد يا سيدي، إلا ما وقع لي بالمصادفة، رغم انشغالي بالمصائب التي نزلت بي. ذلك أني كنت شاهداً عليه أيام إقامتي في المشفى، حيث رأيت ما لا يمكنك أن تصدّقه الآن أو فيما بعد. ولا يوجد رجل في الدنيا يصدقه.

كل هذه المقدمات والتشويق الذي قام به الضابط قبل أن يقصّ ما رآه، ألهب الرغبة لدى بيرالتا، حتى طلب منه بشوق كبير أن يحكي له العجائب التي يجب أن تقال.

قال الضابط:

- لعلك رأيت كلبين يحملان قنديلين، ويسيران ليلاً بمرافقة الأخوين ديلاكاباتشا، ويضيئان الطريق أمامهما، حين يخرجان يلتمسان صدقة.

– نعم، رأيتهما. – أجاب بيرالتا.

– لعلك رأيت أو سمعت ما يُروى عنهما: إذا أُلقي إليهما بصدقة وسقطت على الأرض، يُهرعان فوراً لإضاءة المكان الذي سقطت فيه القطعة النقدية؟ ويقفان أمام النوافذ التي أَلِفا أن يُلقى إليهما منها بصدقة. كانا يسيران في الشوارع بوداعة كأنهما حملان وليسا كلبين؛ لكنهما في المشفى كانا أسدين يحرسانها باهتمام وحرص كبير.

– سمعت الناس تتحدث عنهما. لكن كل ذلك لا يمكن أن يبعث على الدهشة، ولا ينبغي له.

– لكن، ما سأقوله لك الآن، سيثير دهشتك. فلا تستعذ منه، ولا تزعم استحالة وقوعه أو صعوبته. وإنما هيّئ نفسك لتصديقه. ذاك أني رأيت ذات ليلة، بأم عينيّ، هذين الكلبين، وأولهما يدعى ثيبيون والآخر برغانثا، مستلقيين وراء سريري على حصر عتيقة. حوالي منتصف تلك الليلة، وكانت الليلة ما قبل الأخيرة لإقامتي في المشفى، كنت ماأزال مستيقظاً، متفكراً في الأحداث والمصائب التي حلّت بي، فإذا بي أسمع كلاماً قربي؛ فأصخت السمع لأرى إن كنت أستطيع تمييز من يتكلم، وعما يتكلم، وما عتمت أن عرفت فحوى الكلام ومن المتكلم ولم يكن ذاك غير الكلبين ثيبيون وبرغانثا.

– عافاك الله، يا سيد كامبوثانو، حتى هذه الساعة، كنت أرتاب في أن أصدق ما قصصته عليّ حول زواجك. وما حكيته لي الآن، بأنك سمعت الكلاب تتكلم، جعلني في وضع لا أصدّق فيه شيئاً مما تقول أبداً. بحق الله، يا سيدي الضابط، لا ترو هذه الترهات لشخص آخر، إن لم يكن من أصدقائك الخلّص.

- لا تظنني جاهلاً حتى أعلم أن الحيوانات لا تستطيع الكلام إلا بمعجزة. أعلم جيداً أن الزرزور والعقعق والببغاء إذا تكلمت، فإن كلامها لا يعدو كلمات لُقِّنْتها وحفظتها، ولهذه الحيوانات ألسنة مكيفة تستطيع النطق بها، ومع ذلك، هي لا تقدر على الكلام، ولا الإجابة بمنطق سليم كما كان يفعل هذان الكلبان. لذلك، لم أشأ بعد أن سمعتهما أن أصدّق أذنيّ. إني وإن كنتْ مستيقظاً حقاً، فقد أردت أن أعدّ حلماً ما سمعته ورأيته ولمسته بحواسي الخمس التي وهبنيها الله تعالى، ثم دوَّنته أخيراً، دون أن أُنقص كلمة واحدة من مجمله. ومن هنا، يمكننا اتخاذ قرينة تبعث على تصديق هذه الحقيقة التي أعرضها، لأن الأمور التي تناولها الكلبان خطيرة ومختلفة؛ وهي جديرة بأن يعرضها علماء، لا أن تصدر عن فمي كلبين، وإذا كنت لا أستطيع اختلاق شيء كهذا، فإني مضطر، خلاف رأيي وبحزن، إلى أن أصدق أنني لم أكن أحلم، وأن الكلاب تتكلم.

- واعجباه! - أجاب المجاز - . اسأل إنْ كنّا عُدنا إلى دهر الدهارير(١٨) حين كانت ثمار القرع تتكلم، أو عصر إيسوبيو لما كان الديك يكلم الثعلب، والحيوانات تتحادث.

- سأكون أحد أو أكبر من يصدق أن هذا الزمان عاد حتى لو تخلّيت أيضاً، عن تصديق ما سمعت وما رأيت، وما أجرؤ على القسم عليه قسماً يلزمني بتصديق مالا يُصدّق. لكن، بفرض أني واهم، وأن حقيقتي حلم، والإلحاح عليها حمق، ألا يسرك، يا سيد بيرالتا، أن ترى حديث هذين الكلبين، أو أيّاً يكونا، مكتوباً على شكل حوار؟

١٨- الدهارير: أوّل الدهر في الزمان القديم. ويقال الهِدَمْلة أيضاً، أي الدهر القديم (المعجم الوسيط)، كناية عن زمان سحيق غير معروف. (المترجم).

وعلى ذلك أجاب المجاز:

- مادمت لا تملّ من محاولة إقناعي بأنك سمعت الكلاب تتكلم، فإني سأسمع بملء رغبتي هذا الحوار. وإني أعدّه جيداً، مادامت عبقرية السيد الضابط كتبته وسجلته.

- لكن، هناك شيء آخر أذكّرك به: أمَا وإني كنت حينئذ شديد الانتباه، ثاقب الذهن، حاد الذاكرة بفضل حبات الزبيب واللوز التي تناولتها، فقد حفظت كل ما سمعته عن ظهر قلب بالكلمات ذاتها تقريباً، وكتبته في اليوم التالي دون أن أزيّنه بألوان بلاغية ودون أن أضيف إليه شيئاً...، أو أحذف منه شيئاً لأجعله شائقاً. لم يجر الحديث في ليلة واحدة وإنما في ليلتين متعاقبتين. وأنا لم أكتب إلا حديث ليلة واحدة، وهو يدور حول حياة برغانثا. أما حياة ثيبيون، وكانت محور حديث الليلة التالية، فإني أفكر في أن أكتبها، إنْ رأيت أن هذا الحديث يقع موقع صدق أو على الأقل لم يُزدَرَ وينبذ. أحمل الحديث في عبّي. ووضعته على شكل حوار لأوفّر «قال ثيبيون»، «أجاب برغانثا» التي تطيل في العادة من مدى الكتابة.

وبعد أن أنهى كلامه، سحب من عبه إضبارة وضعها بين يدي المجاز الذي تناولها ضاحكاً وكأنه يسخر من كل ما سمعه، وما يحسب أنه سيقرؤه.

- أنا سأضطجع على هذا المقعد، بينما تقرأ أنت - إن شئت - هذه الأحلام أو الترّهات التي ليس فيها شيء حسن سوى أنك تستطيع تركها متى أضجرتك.

- إفعل ما يعجبك. - قال بيرالتا -. وأنا سأنجز هذه القراءة بسرعة.

استلقى الضابط، وفتح المجاز الإضبارة، ووجد في البداية هذا العنوان.

قصة ثيبيون وبرغانثا
والحديث الذي دار بينهما

كلبان من كلاب مشفى القيامة الكائن في بلد الوليد خارج باب ديل كامبو. هما من تلك الكلاب التي يطلق عليها في العادة اسم كلاب ماهوديس.

ثيبيون: صديقي برغانثا، لنترك المشفى اليوم في رعاية الثقة، ولنتسلّل إلى تلك الوحدة بين الحصر حيث نستطيع التمتع بهذه النعمة الفريدة التي أنعمت بها السماء علينا، دون أن يشعر بنا أحد.

برغانثا: أخي ثيبيون، حين أسمعك تتكلم، وأعلم أني أكلمك، لا أستطيع تصديق ذلك، لأنّ كلامنا يبدو لي خارجاً عن الحدود المألوفة.

ثيبيون: هذي هي الحقيقة، يا برغانثا. وأعظم ما في هذه الأعجوبة أننا لا نتكلم فقط، وإنما نتكلم بحكمة، كأننا نملك عقلاً هو الحدّ الفاصل بين الإنسان والحيوان الأعجم. ذلك أن الإنسان حيوان عاقل والأعجم غير عاقل.

برغانثا: كل ما تقوله، يا ثيبيون أفهمه. كلامك وفهمي عليك يثيران

فيّ إعجاباً ودهشةً جديدين. الحقّ أني سمعت الناس مراراً وتكراراً تنسب إلينا خصالاً كبيرة. ولقد زعم بعضهم أن لدينا غريزة طبيعية حيّة وحادة جداً، حتى أنها تقدِّم بين أمور عدة، قرائن على أننا لا نفتقر إلا إلى القليل لكي نبلغ ما لا أدري من فهم قادر على المحاكمة.

ثيبيون: ما سمعته منهم إطراء وتمجيد لحدّة ذكائنا ووفائنا وأمانتنا الكبرى، حتى صار من عادتهم أن يرسمونا شعاراً للصداقة. فلو نظرتَ إلى قبور الألباستر لوجدت مرسوماً عليها صور الموتى المدفونين فيها، خاصة إذا كانوا أزواجاً ثم صورة كلب بين قدمي المرأة والرجل، علامةً على أنهما حافظا خلال حياتهما على صداقة وأمانة لم تُنتهكا.

برغانثا: أعلم جيداً أن كلاباً لشدة وفائها، رمت بأجسادها في القبر مع أجساد أسيادها المتوفين. وبعضها وقف على قبور أسياده، دون أن يبرح مكانه ممسكاً عن الطعام حتى قضى نحبه. وأعلم أيضاً أن الكلب يحتل مرتبة بعد الفيل في الفهم، ويأتي بعدهما الحصان ثم القرد.

ثيبيون: هذا صحيح. وستقرّ بأنك لم ترَ و لم تسمع أبداً أن فيلاً واحداً أو كلباً أو حصاناً أو قرداً تكلم. وأفهم من ذلك أن كلامنا المفاجئ يقع تحت اسم تلك الأشياء التي تدعى معجزات. وقد بينت التجربة أنها إذا ظهرت وتجلّت، فإن كارثة تهدد بني البشر.

برغانثا: على هذا، لا آتي أمراً نكراً إذا عددت علامة عجائبية ما سمعته في أيامي الماضية من طالب وأنا مارٌّ قرب قلعة هيناريس.

ثيبيون: وماذا سمعته يقول؟

برغانثا: بين خمسة آلاف طالب انتسبوا إلى الجامعة ذلك العام، ألفان يدرسون الطب.

ثيبيون: وماذا في ذلك؟

برغانثا: كارثة! إمّا أن يكون لهؤلاء مرضى لعلاجهم، - ومعنى هذا انتشار وباء وسوء طالع - وإمّا أن يموتوا هم من الجوع.

ثيبيون: لكنّنا نتكلّم، سواء كان كلامنا معجزة أم لا. فما قضتِ السماء بوقوعه، فلا ذكاء البشر ولا معرفتهم قادر على ردّه. وهكذا لا موجب للاختصام حول كيف ولماذا نتكلّم. كان خيراً لنا لو قضينا هذا اليوم أو هذه الليلة في بيتنا. لكن، مادمنا بين هذه الحصر، فلسنا ندري إلى متى تدوم هذه السعادة. فلنعرفْ كيف نفيد منها. ولنتكلّم هذه الليلةَ دون أن نفسح للنوم أن يحرمنا هذه المتعة التي طالما رغبت فيها.

برغانثا: وأنا أيضا. فمذ امتلكت القدرة على قضْم عظم، والرغبة تراودني في أن أتكلم، وأقول أشياء مُودعة في الذاكرة. وهي، لقدَمها وكثرتها، إمّا أن تصدأ أو تُنسى. وإذْ أرى نفسي مزوّداً بنعمة الكلام الإلهيّة هذه، دون أن أتوقّعها، فإني أحلم بأن أتمتّع بها، وأفيد منها أقصى ما أستطيع مستعجلاً لأقول كل ما يخطر على البال، وإن يكنْ متعثّراً أو غامضاً، لأنني لا أعلم متى تُستردّ مني هذه النعمة المعارة.

ثيبيون: ليكنِ الأمر على النحو التالي، يا صديقي برغانثا: أنت تقصّ عليّ هذه الليلة حياتَك، والتقلّباتِ التي مررت بها حتى هذه الساعة. وليلة غد أقص عليك حياتي إذا ظللنا نملك القدرة على الكلام. فالأفضل لنا أن نُنفِق الوقت في معرفة حياتينا من أن نحاول معرفة حياة الآخرين.

برغانثا: كنت أعدّك، يا ثيبيون، دائماً حكيماً وصديقاً، والآن أكثر من أي وقت آخر. فأنت تريد أن تقص عليّ شؤونك، وتعرف أموري. وبحكمة وزّعت الوقت اللازم لكلّ منّا لعرضها. لكن، احذرْ أولاً من أن يسمعنا أحد.

ثيبيون: لا أحد يسمعنا، كما أعتقد. قربنا لا يوجد إلا جنديّ يتناول دواء للتعرّق. لكنه في هذه الحالة، يميل إلى النوم وليس للاستماع إلى أحد.

برغانثا: إذا كان بإمكاني الكلام وأنا مطمئنّ، فأصغِ إليّ. وإذا ضجرت مما أقول، فإما أن توبّخني أو تطلب مني السكوت.

ثيبيون: تكلّم حتى الصباح، أو حتى يشعر بنا أحد. وأنا سأصغي إليك برغبة كبيرة دون أن أقاطعك إلا حين أرى لذلك ضرورة.

برغانثا: يبدو لي أني أبصرت النور في إشبيلية وفي حي المسلخ منها؛ وهو يقع خارج باب ديلاكارِنه. لذلك أتخيّل أن أبويّ كانا من تلك الكلاب القوقازية التي يربّيها أولئك الأخلاط ممن نسميهم قصّابين. أوّل أسيادي، كان يُدعى نيكولاس ديل رومو. وهو فتى قويّ البنية، سمين غضوب، مثل كل أولئك الذين يمارسون مهنة الجزارة. نيكولاس هذا علّمني وجراءً أخرى أن نهاجم بمرافقة كلاب أكبر منا، الثيرانَ والقبض عليها من آذانها. وبسهولةٍ بالغة صرت معلّماً في مثل هذه الأمور.

ثيبيون: لا يُدهشني ذلك، يا برغانثا. لأن الشرّ إذا كان متأصّلاً في الطبيعة، فمن السهل أن نتعلم فعله بسرعة.

برغانثا: وماذا أقول لك يا أخي، عن الأمور الفاضحة التي رأيتها في المسلخ؟ أولاً، عليك أن تفترض أن كل من يعمل فيه، صغيراً أو كبيراً، واسع الذمة، قليل الحياء لا يخشى الملك ولا العدالة. كلهم يتعاطون الدعارة. إنهم طيور جوارح ووحوش كواسر. يقومون بأودهم وأود صاحباتهم مما يسرقون. كل الأيام التي يُذبح فيها، يتجمّع قبل الفجر حشد كبير من النساء الساقطات، والصبيان حاملين قففاً، يأتون بها فارغة، ويعودون بها مملوءة بقطع اللحم؛ أمّا الخادمات فيملأنها بالخصيّ، وكامل متن الدابة تقريباً. لا يُذبح رأس ماشية، حتى يأخذ هؤلاء من الذبيحة عشرها وأطايبها؛ وإذْ لا تُفرض في إشبيلية ضريبة على اللحم، يستطيع كل امرئ أن يحمل منه ما يشاء. يستبقون ما يُذبح سواء كان من أفضل الماشية أو أردئها. وفي هذه الحفلة فائض كبير دائماً. أصحاب الماشية دبّروا أمورهم مع هؤلاء الناس، لا ليكفّوا عن سرقتهم (وهذا مستحيل)، وإنما ليعتدلوا في اقتطاعهم واختلاسهم من الذبائح التي (يقلمونها) ويشذّبونها كأنها صفصافة أو كرمة. لا شيء أثار دهشتي، وبدا لي غاية في الجنون كرؤية هؤلاء القصابين يقتلون رجلاً بالسهولة التي يقتلون بها بقرة. فلأتفه سبب: يبقرون بسكين ذات مقبض أصفر بطن شخص كما يبقرون ثوراً. أعجوبة أن يمر يوم واحد دون مشاجرات أو جراح، أو موتى أحياناً؛ يتباهون جميعهم بشجاعتهم، ولهم مراكز قوادة. لا أحد منهم إلا وله من يحميه، ويقدم له الرِشا من شرائح اللحم وألسنة البقر. وفي الختام، سمعتُ رجلاً حكيماً يقول: ثلاثة أشياء ينبغي للملك أن يستردّها في إشبيلية: شارع لاكاثا، لاكوستانيا، وحي المسلخ.

ثيبيون: إذا ظللت تقص عليّ أوضاع أسيادك، وعيوب مهنهم يا

صديقي، فمن الواجب أن نطلب إلى السماء أن تمنحنا الكلام لمدّة عام. ولن تقصّ نصف قصتك إذا مضيت بالطريقة ذاتها. أنبّهك إلى شيء ستلمسه بالتجربة حين أبدأ فأقص عليك سيرتي. ذلك أن بعض القصص تحوي الظرف والحلاوة في ذاتها؛ وبعضها الآخر بطريقة سردها. أعني أن بعضها يبعث على السرور دون مقدمات أو زخارف لفظية، وبعضها يلزمه أن يُكسى بالكلمات، ويحتاج إلى إشارات بالوجه واليدين، وتغيير في الصوت، فتتحوّل من قصص تافهة وضعيفة باهتة، إلى قصص ذكيّة وممتعة، ولا تنسَ هذا التحذير لتفيد منه فيما بقي من قصتك.

برغانثا: سأفعل ذلك إن استطعت وسمح لي الإغـراء الكبير في الكلام. لكن، يبدو لي أنني بصعوبة سأستطيع الكلام باليد.

ثيبيون: اقتصر على اللسان الذي تكمن فيه أشدّ الأخطار على حياة الإنسان.

برغانثا: أقول إذاً، إن معلمي علمني أن أحمل سلة في فمي وأذبّ عنها كل من يريد انتزاعها مني؛ ودلني على بيت صاحبته، وبذلك أعفت خادمتها من المجيء إلى المسلخ، لأنني كنت أحمل إليها في الفجر ما كان سرقه صاحبها ليلاً. ذات يوم، كنت أسير وقت السَحَر بسرعة حاملاً إليها حصّتها، فسمعت من يناديني باسمي من إحدى النوافذ. فرفعت بصري، وشاهدت فتاة في منتهى الجمال؛ فتوقفتُ هنيهة؛ ونزلت الفتاة إلى الباب المطلّ على الشارع، ونادتني مرة أخرى. دنوت منها لأرى ماذا تريد مني. لم تكن ترغب في شيء إلا أنها أخذت ما في السلة، ووضعت عوضاً عنه حذاءً نسائياً عتيقاً.

وقلت حينئذ في نفسي: « هاهو اللحم يذهب إلى اللحم». وقالت لي الفتاة بعد أن أخذت قطعة اللحم: «اذهب، يا بطل، أو أياً يكن اسمك، وقل لمعلمك نيكولاس ديل رومو ألا يثق بالحيوانات، ولا بشعرة واحدة من الذئب، ولا بحامل السلة». كنت أستطيع استرداد ما انتزعته مني؛ لكنني لم أشأ أن أغرز فمي اللاحم الدَنِس في تلكما اليدين النظيفتين البيضاوين.

ثيبيون: حسناً فعلت. للجمال هذا الامتياز، وهو تقدير الناس له دائماً.

برغانثا: وهذا ما فعلته. وهكذا عدت إلى معلمي أحمل الحذاء، ودون قطعة اللحم. وبدا له بأنني عدت أسرع من المعتاد. ولما شاهد الحذاء، تخيل السخرية منه، فاستلّ سكيناً وطعنني بها طعنة، ولو لم أحدْ عنها لما كنت تسمعني الآن أروي لك هذه القصص، أو ما أنوي أن أقصه عليك أيضاً. فولّيت الأدبار منسرباً من وراء / سان برناردو/ متخذاً طريقي صوب الحقول، أو إلى حيث يقودني الحظ. تلك الليلة، بت في العراء، وفي اليوم التالي، قيّض لي حسن الحظ قطيعاً من الأغنام. لما رأيته، حسبت أني وجدت فيه ضالّتي وعنوان راحتي. وبدا لي أن حراسة القطعان من صميم عمل الكلاب. وفي هذا العمل تكمن فضيلة كبرى تشبه حماية البسطاء والضعفاء من سطوة الأقوياء والطغاة. وما إن لمحني أحد رعاة القطيع الثلاثة حتى ناداني: «تو! تو!». وأنا ما كنت أرغب في شيء آخر. فدنوت منه وطأطأت رأسي، وبصبصت[١٩]؛ فأمسك بي من خاصرتي، وفتح فمي، وبصق فيه،

١٩- بصبص الكلب: حرّك ذيله طمعاً أو مَلقاً. (المترجم).

ونظر إلى أنيابي فعرف عمري، وقال للراعيين الآخرين إن فيّ كلّ أمارات الكلب الأصيل. في تلك الأثناء وصل صاحب القطيع على فرسه الشقراء يحمل رمحاً ودرقة على طريقة الفرسان. كان يبدو تاجراً من تجار الساحل أكثر منه صاحب قطيع. وسأل الراعي: «ما هذا الكلب؟ أفيه ما يدل على أنه كلب جيّد؟» وأجاب الراعي: «لك أن تصدق ذلك. فحصته جيداً. كل العلامات فيه تبيّن وتعد بأنه سيكون كلباً عظيماً. والآن وصل إلى هنا. فلا أعرف صاحبه. لكنني أعلم أنه ليس من كلاب حراسة القطعان في المنطقة». فأجاب السيد: «ليكن ذلك. ضع له طوق ليوننثو الكلب النافق، وقدم له الطعام كالكلاب الأخرى، وداعبه كيما يترفق بالقطيع ويلازمه». وبعد أن أنهى كلامه، وضع الراعي في عنقي طوقاً مملوءاً بالإبر الفولاذية؛ وقدم لي كمية كبيرة من الحساء والحليب في معلف. وأطلق علي اسم بارثينيو. وجدت السرور والراحة بالسيد الجديد والوظيفة الجديدة. وكشفت عن درايتي ومهارتي في حراسة القطيع؛ فما كنت أفارقه أبداً إلا في أوقات القيلولة التي كنت أقضيها إمّا في ظل شجرة أو حافة صخرة أو تحت شجيرة على ضفة جدول من هذه الجداول التي تجري هناك. وما كنت أقضي ساعات راحتي في بطالة. وإنما كنت أشغل أثناءها ذاكرتي بتذكر أمور كثيرة، خاصة حياتي في المسلخ، وحياة معلمي وأضرابه الذين يجهدون أنفسهم في تلبية أذواق صاحباتهم المربكة. آه! كم من أشياء أستطيع البوح بها، تعلمتها في مدرسة صاحبة معلمي! لكن، لا مفرّ لي من أن أسكت عنها، كيلا أطيل عليك، وكيلا أكون نمّاماً مغتاباً.

ثيبيون: سمعت أن شاعراً كبيراً قديماً قال: من الصعب ألا يكتب المرء

هجاء. لذلك، أنا أرضى لك أن تُلقي قليلاً من الضوء، وليس من الدم. أعني أن تُشير دون أن تجرح أو تقتل أحداً ممن تشير إليه؛ لأن الغيبة سيئة؛ ولأن كثيراً من الناس يسر لو قتلتَ أحداً. وإذا كنت تستطيع تجاوزها، فسأعدّك حكيماً جداً.

برغانثا: سأعمل بنصيحتك؛ وأنتظر بشوق كبير متى يحين الوقت فتروي لي أحداث حياتك. لقد عرفتَ عيوبي وأنا أقص حياتي، وأصلحتها لي. وآمل أن تحكي قصتك بطريقة فيها فائدة ومتعة في آن واحد. لكنني أستأنف خيط قصتي المقطوع، فأقول: خلال سكون أوقات قيلولتي ووحشتها، رأيت أن لا حقيقة لما رُوي عن حياة الرعاة، على الأقل حياة أولئك الذين كانت صاحبة معلمي تقرأ عنهم في كتب كانت تدور حول رعاة وراعيات، زاعمة أنهم يقضون حياتهم كلها في الغناء والعزف على مزمار القرِب، ومزمار الحي والرباب وآلات أخرى عجيبة. كنت أقف لأسمعها وهي تقرأ. وكانت تقرأ كيف أن الراعي أنفريسو كان يغني غناءً فائقاً، ممجداً (أبيليساردا)، دون أن يترك شجرة واحدة في جبال (أركاديا)، إلا ويجلس عند جذعها ويغني منذ خروج الشمس من أذرع الفجر، حتى تغيب بين أحضان تيتيس؛ وما كان يكفّ عن أغانيه الجميلة ولا شكواه الباكية حتى بعد أن يبسط الليل على وجه الأرض أجنحته السود. ولم يَخْفَ عليها أن الراعي (إيليسون) كان محباً أكثر مما هو جريء؛ وكان يحشر نفسه في شؤون الآخرين دون الاهتمام بحبه وقطيعه. وكانت تقول أيضاً إن الراعي الوحيد الذي كان رساماً، كان ساذجاً أكثر مما هو سعيد. وعن إغماءات (سيرينو)، وندم (ديانا)، كانت تقول إنها حمدت الله كثيراً، وشكرت للحكيمة فيليشا سعيها فأحبطت بمياهها السحرية المكائد، وفضحت تلك المتاهة

من المصاعب. كنت أتذكر كتباً كثيرة من هذا النوع، وأنا أستمع إليها تقرأها، لكنها لم تكن جديرة بأن تشغل بها الذاكرة[٢٠].

ثيبيون: أخذتَ تفيد من نصيحتي، يا برغانثا. نمّ، وانقرْ نقراً، وامضِ، ولتكن نيّتك صادقة، وإن لم يظهر على اللسان.

برغانثا: في هذه الأمور، لا يعثر اللسان أبداً، إن لم تسبقِ النية لذلك أولاً. وإذا صدفَ أن نممتُ عن غفلة أو خبث، فإني أجيب من يلومني ما أجاب به ماوليون، الشاعرُ المغفّل، والأكاديميُّ الساخر - في أكاديمية المهرجين - من سأله ماذا تعني Deum te Deo، فقال: Dé donde diera[٢١].

ثيبيون: هذا جواب إنسان بسيط. لكن، إن كنت حصيفاً، أو ترغب في أن تكون كذلك، فلا تقلْ شيئاً يترتب عليك الاعتذار عنه. تابع!

برغانثا: أقول: إن كل الأفكار التي عرضتُها، وكثيراً غيرها، جعلتني أميّز الممارسات المختلفة التي كان يقوم بها رعاتي وأضرابُهم من تلك التي يقوم بها الرعاة في الكتب، كما سمعتهم يقرؤونها؛ لأن رعاتي

٢٠- يشير إلى الأدب الرعوي الذي عُرِف في إسبانيا في القرن السادس عشر بتأثير الكلاسيكيات القديمة، والأدب الإيطالي والبرتغالي. موضوعه قصة حبّ بين راعٍ وراعية تُتخذ وسيلة لوصف الطبيعة؛ والحدث فيها يختلط بأعمال السحر. ثربانتس نفسه كتب قصة من هذا النوع اسمُها لاغالاتيا. (المترجم).

٢١- مطلع نشيد ديني لاتيني. وتُستخدم في الأدب للتعجب: يا الله! والجملة الأخرى معناها في الإسبانية إرسال الكلام على عواهنه، دون تروٍّ أو تفكير. ويستند المغفّل في تفسيره إلى تشابه بعض الحروف في الجملتين اللاتينية والإسبانية. (المترجم).

كانوا يغنون أغاني كلها نشاز، وسيئة التأليف من طراز: احذري الذئب، كيفما اتجه، يا خوانيكا، وأشياء أخرى مشابهة، ولا تُرافَق بصوت الناي ولا الرباب ولا المزمار. وإنما بقرع العصا بالعصا، أو بصنّاجات توضع بين الأصابع. وليست أصواتهم رقيقة ولا رنّانة ولا مُعجبة؛ وإنما هي أصوات مبحوحة تبدو، منفردةً أو مجتمعة، أنها لا تغنّي وإنما تصرخ أو تجأر. يقضون معظم النهار في تفلية بعضهم بعضاً أو بإصلاح أكواخهم. ليس بين الراعيات، واحدة تدعى أماريليس، أو فيليداس، أو غالاتيا أو ديانا؛ وليس بين الرعاة ليساردو، ولا لاووس، أو خاثينتو، أو ريسيلو. أسماؤهم كلها من نوع انطون، دومينغو، بابلو، أو إيّورنته. لذلك أحسب ما يحسبه الناس جميعاً أن كل تلك الكتب أشياء مُتخيلة ومكتوبة بقصد تسلية العاطلين. وليس لها أية حقيقة. ولو كانت حقيقية لوجدت عند رعاتي أثراً من تلك الحياة السعيدة؛ وتلك البراري البهيجة، والغابات الملتفّة؛ والجبال القدسية؛ والحدائق الغُنّ؛ والجداول الصافية؛ والينابيع البلورية؛ ولنُقِل عنهم كلمات الغَزَل الشريفة والبليغة؛ ولشُوهد إغماءُ هذا الراعي، وتلك الراعية؛ ولسُمع عزف هذا على المزمار وذاك على الناي.

ثيبيون: كفى، يا برغانثا! عُدْ إلى ما كنت فيه وامضِ.

برغانثا: أشكرك، يا صديقي ثيبيون. فلو لم تحذرني لالتَهب فمي دون أن أقف حتى أؤلف كتاباً كاملاً حول خدع هؤلاء. لكن، سيحين الوقت فأروي كل شيء بمنطق أصوب وأسلوب حسن.

ثيبيون: رحم الله امرأً عرف حدّه فوقف عنده يا برغانثا. أعني: انتبه إلى أنك حيوان يفتقر إلى العقل. وإذ صرت تمتلك قدراً يسيراً منه، فقد تحقق كلانا من أنه شيء خارق للطبيعة، و لم يُرَ مثله أبداً.

برغانثا: هذا صحيح، لو ظللت على جهلي الأول. لكن، يتدفق على ذاكرتي الآن ما كان يجب أن أقصه في بداية حديثي. ذلك لا يعني أني غيرُ مُعجب بما أقول. وإنما يُخيفني ما أضرب عنه صفحاً.

ثيبيون: يعني، ألا تستطيع أن تحكي ما يرد إلى ذاكرتك الآن؟

برغانثا: إنها قصة حديث لي مع ساحرة كبيرة؛ هي إحدى تلميذات لاكاماتشا ديمونتيّا.

ثيبيون: إذاً، قصها عليّ قبل أن تمضي إلى الأمام في سرد سيرتك.

برغانثا: لن أفعل هذا إلا في حينه. اصبرْ عليّ، واستمع إلى الأحداث حسب تسلسلها؛ بذلك تشعر بمتعة أكبر، إن لم تضجرك الرغبة في معرفة الوسائل قبل الغايات.

ثيبيون: اختصر! وقص ما تشاء كما تشاء.

برغانثا: أقول، إذاً: وجدت نفسي صالحاً للعمل في حراسة الأغنام، لأنني كنت آكل خبزي بعرق جبيني وكدّي. أما البطالة، وهي أمّ الرذائل وأصلها، فلم تجد إلى نفسي سبيلاً، فإذا كنت أرتاح في النهار، فلم أكن أعرف طعم النوم ليلاً، لكثرة الهجمات المباغتة التي كنا نقوم بها استعداداً لملاقاة الذئاب، وما أن يصيح الرعاة: «الذئبَ! الذئبَ! يا بارثينيو!» حتى أكون في طليعة الكلاب الأخرى إلى حيث أشار الرعاة إلى وجود الذئب. كنت أطوي الوديان، منقّباً الجبال، متحرّياً الغابات، مجتازاً المنحدرات، عابراً الطرقات. وفي الصباح أعود إلى القطيع دون أن أجد للذئب أثراً؛ أعود لاهثاً، مُتعباً، مقطّع الأوصال، متشقّق القدمين

من الأشواك. وكنت أجد قرب القطيع إما نعجةً ميتةً أو خروفاً مذبوحاً وقد أكل الذئبُ نصفه. كنت أشعر باليأس، إذ أرى يقظتي الكبرى ومهارتي لم تفيدا إلا شيئاً يسيراً. وكان يأتي صاحب القطيع فيتلقّاه الرعاة حاملين جلد الشاة المقتولة، فيتهم الرعاة بالتقصير، ويأمر بمعاقبة الكلاب لكسلها. فكانت تنهمر علينا العصيّ، وعلى الرعاة ينهال التوبيخ. وإذ وجدتُني أُعاقَب، ذات يوم دون ذنب، ورأيت حرصي ومهارتي وشجاعتي لا تجدي فتيلاً في قنص الذئب، عزمتُ على أن أبـدّلَ أسلوبي، فلا أنحرف باحثاً عنه بعيداً عن القطيع كما جرت العادة، بل سأمكث إلى جانبه: فإذا ما جاء الذئب إلى هنا، فسيكون فريسةً أسهل منالاً. كل أسبوع كانت تُدَقّ أجراس الإنذار. وذات ليلة ظلماء، أتيحت لي الفرصة لرؤية الذئاب. وهي ذئاب يستحيل حراسة القطيع منها. فربضتُ وراء شجيرة، واندفعت الكلاب متقدمة؛ ومن مكمني تطلعتُ فرأيت راعيين يقبضان على خروف من أفضل خراف القطيع، ويقتلانه بطريقة بدا فيها في الصباح أنه ضحية الذئب حقاً. ذُهلتُ، ودَهِشت لمّا علمت أن الرعاة هم الذئاب التي تمزّق القطيعَ الموكولَ إليهم أمر حراسته. وسرعان ما أعلموا المعلم بضحية الذئب، مقدمين له الجلد وجزءاً من لحم الخروف الذي أكلوا معظمه وخير ما فيه. عنّفهم المعلم مرة أخرى، وعاقب الكلاب أيضاً. لم يكن هناك ذئاب ولا من يحزنون، وأخذ القطيع يتناقص؛ كنت أرغب في كشف الأمر لكنني كنت أجد نفسي أبكم. وكنت أُمْلأُ حسرةً وألماً وأقول: «يا إلهي! من يقدر على إصلاح هذا الشر؟ من له القدرة على أن يُخبر أن الدفاع مثلوم، والحرس نيام، والثقة مسلوبة؛ ومن يحرس يقتل؟».

ثيبيون: لا فُضَّ فوك، يا برغانثا! لا لص أكبر أو أخفى من اللص

الأليف. وهنا يكمن مقتل السُّذَّج من الناس أكثر من أهل الحذر. لكن الخطر هو باستحالة تسيير شؤون الدنيا إنِ انعدمت الثقة والأمان. لكن، لنقتصر على ذلك، فلا أريد أن نبدو واعظين. تابع.

برغانثا: أتابع وأقول إني صمّمت على ترك عملي، واختيار عمل آخر إن لم يكن ذا مردود حسن، فلا أتلقّى فيه، على الأقل، عقاباً. عدت إلى إشبيلية ودخلت في خدمة تاجر غني جداً.

ثيبيون: بأية طريقة استطعت الدخول في خدمة سيد؟ من الصعوبة بمكان أن تجد في يومنا هذا رجلاً شريفاً جديراً بأن تخدمه. شتّان ما بين أسياد الأرض، وبين سيد السماء. فأولئك، حين يتلقّون خادماً، يفلّون نسبه أولاً؛ ويمتحنون مهارته؛ ويتقرّون هيئته، ويريدون أن يعرفوا حتى ثيابه الداخلية. لكن، للدخول في خدمة الله، أفقر الخلق هم الأغنى، والأبسط هم ذوو النسب الرفيع. ومن أراد خدمته، فما عليه إلا أن يأتيه بقلب سليم حتى يُسلكه في عباده الصالحين الذين أنعم عليهم؛ وهم لكثرتهم لا يسعهم فهمه إلا بصعوبة.

برغانثا: كل هذا وعظ، يا صديقي ثيبيون.

ثيبيون: وهذا ما يبدو لي. وعلى ذلك، فأنا أسكت.

برغانثا: أمّا بشأن سؤالك حول الطريقة التي دخلتُ بها في خدمة سيد، فأقول: أنت تعلم أن التواضع قاعدة كل الفضائل وأساسها؛ ومن دونه لا تقوم فضيلة أبداً. إنه يذلل العقبات، ويقهر الصعاب؛ وهو وسيلة تقودنا دائماً إلى غايات مجيدة، فيجعل الأعداء أصدقاء؛ ويسكّن من سَورة غضب الحمقى؛ ويُطامِن من غرور المتكبرين؛ هو أمُّ البساطة

وشقيق الاعتدال. باختصار: النقائص لا تستطيع الانتصار عليه، لأنه بلينه ورفْقه، تنبو وتحيد عنه سهام الخطيئة. أفدْت من هذا التواضع حين كنت أريدُ الدخول في خدمة أحد البيوت. فأحرص جيداً على أن يكون بيتاً من بيوت الأثرياء، جدير بأن يدخله كلب كبير. ثم كنت أدنو من الباب، وأنبح حين ألمح شخصاً يبدو غريباً. أما حين يُقبل صاحب البيت، فأطأطئ رأسي وأحرّك ذيلي، وأقترب منه ماسحاً حذاءه بلساني. وإذا ضُربت بالعصي، تجمّلْت بالصبر، وعدتُ بالوداعة نفسها فأتودد إلى من ضربني، فلا يثنّي عليّ بعد أن يرى إلحاحي ومسلكي النبيل. وإلحاحٌ بعد إلحاح، أُقبل في البيت، فأقوم بواجب الخدمة جيداً. فيحبني أهل البيت حباً جّماً. لم يصرفني أحد لو لم أصرف نفسي. أو بالحرا، أذهب من تلقاء ذاتي. ولربما عثرت على معلم آخر، وأنا ما أزال في بيت معلمي الأول، لو لم يلاحقني سوء الحظ.

ثيبيون: بهذه الوسيلة أيضاً، كنت أدخل في خدمة معلمي. يبدو لي أننا نقرأ أفكار بعضنا بعضاً.

برغانثا: أمَا وإننا تلاقينا في هذه الأمور، فسوف أرويها لك في حينه كما وعدتك. والآن، استمع إلى ما جرى لي بعد أن تركت القطيع في أيدي أولئك الضالّين. عدت إلى إشبيلية، كما قلت. وهي مأوى الفقراء وملجأ المنبوذين. وهي في كبرها لا تحوي صغار الناس فقط، وإنما لا تخلو من كبارهم أيضاً. دنوت من باب بيت كبير لأحد التجّار. وقمت بألعابي المعتادة التي لم أحتج إلا إلى القليل منها حتى تلقّاني أصحاب البيت بالقبول. كنت أربط خلف الباب نهاراً، وأترك في الليل طليقاً. كنت أخدم باهتمام ومهارة كبيرة: أنبح على الغرباء، وأهرّ في وجه من لا أعرفه جيداً. لم يكن يغمض لي جفن ليلاً: فأزور الحظائر، وأصعد

السطوح، وأحرس بيت سيدي دائماً، وبيوت الآخرين. أُعجب معلمي بخدمتي إعجاباً كبيراً، فأمر بأن أُعامل معاملة حسنة، وأعطى طعاماً من خبز وعظام تُرفع أو يُرمى بها عن المائدة: إضافة إلى ما يفيض عن المطبخ. وكنت أُبدي على ذلك آيات الشكر قافزاً قفزات لا حصر لها ولاسيما حين يكون معلمي قادماً من الخارج. كانت علامات الفرح التي أبديها و القفزات التي أقوم بها كثيرة، فأمر معلمي أن يُفكّ وثاقي ويترك سراحي ليلا ونهاراً. ولمّا رأيت نفسي طليقاً، هُرعت إليه أحوطه وأتمسّح به دون أن أدنو من يديه متذكراً حكاية ايسوبو عن حمار جد حمار أراد أن يداعب معلّمه كما تداعبه كليبة مهداة إليه، فكوفئ بأن طُحن ضرباً بالعصا. بدا لي أن مغزى القصة هو أن الظَرْف والدعابة عند البعض، ليس كذلك عند البعض الآخر، فَلْينبزِ المهرج نفسه بالألقاب، وليلعب المشعبذ بيديه؛ ولينهق الصعلوك؛ وليقلد الرجل الوضيع غناء العصافير وشتّى حركات الحيوانات وأفعال البشر؛ لكنّ الرجل العظيم لا يرغب في أن يفعل شيئاً من هذا لأن هذه المهارات كلها لا تمنحه مصداقية ولا اسماً شريفاً.

ثيبيون: كفى! تابع يا برغانثا، سبق أن علمنا كل هذا.

برغانثا: ليت الذين أعنيهم يفهمون كما فهمت أنت. لا أدري ما الدافع الذي يجعلني أتألم حين أرى سيداً نبيلاً ينقلب إلى رجل بذيء، ويتباهى بأنه يعرف اللعب بالأقداح؛ أو لا يوجد من يُتقن رقص الشاكانا مثله. أعرف سيداً قصّ اثنتين وثلاثين زهرة من الورق وعلّقها على قماش أسود جاعلاً منها نُصباً. وقد صنع منها مقداراً كبيراً وكان يطوف بها ليراها أصدقاؤه، وكأنه يُريهم مخلفات الأعداء وراياتهم التي كانوا ينصبونها فوق قبور آبائهم وأجدادهم. هذا التاجر إذاً، كان له

ولدان. الأول في الثانية عشرة، والآخر في الرابعة عشرة. وكانا يدرسان النحو في مدرسة جمعية يسوع. كانا يذهبان إلى المدرسة بأبّهة يرافقهما خادم ووصيفان يحملون كتبهما وهذا الذي يسمونه حقيبة. عند رؤيتهما ذاهبين بهذا الترف: راكبين إن كان النهار شامساً، أو في عربة إن كانت تمطر، كنت أفكر وأقلّب الفكر في الطريقة البسيطة التي كان والدهما يذهب بها إلى «البورصة» لينجز أعماله التجارية، لأنه لم يكن يصطحب إلا خادماً زنجياً. وأحياناً كان يذهب على بغل قليل العدّة.

ثيبيون: اعلم يا برغانثا أن من عادة التجار في إشبيلية وفي مدن أخرى أيضاً، أن يكشفوا عن سلطتهم وثروتهم ليس في أشخاصهم، وإنما في أبنائهم، لأن التجار هم أكبر في ظلالهم مما هم في أصولهم؛ وإذا كانوا لا يولون اهتماماً إلا لمعاملاتهم وعقودهم، فإنهم كانوا يتعاملون فيما بينهم ببساطة. لكن الطموح أو الثروة يتفانى لكي يتجلّى فينبعث في أبنائهم. لذلك، هم يعاملون أبناءهم ويجيزونهم كأنهم أبناء أمراء. وبعضهم يبحث لهم عن ألقاب ويعلّق على صدورهم شعاراً طالما ميّز عِلْية القوم من الشعب.

برغانثا: طموحٌ نبيلٌ طموحُ من يسعى لتحسين وضعه دون إلحاق ضرر بالآخرين.

ثيبيون: نادراً ما يتحقّق الطموح، أو لا يتحقق أبداً إلا بإلحاق الضرر بالآخرين.

برغانثا: اتفقنا ألا نغتاب أحداً.

ثيبيون: أجل! لكنني لا أغتاب أحداً.

برغانثا: الآن تأكّد لي ما سمعته مراراً وتكراراً: ربّ هُمَزة لُمَزة يطعن في عشرة أنساب، ويغمز من قناة عشرين من الصالحين؛ وإذا ما لامه أحد على ما قاله، يجيب بأنه لم يقل شيئاً؛ وإن قال شيئاً، فهو لم يقله على هذا الشكل؛ ولو علم أن أحداً سيتضرّر من قوله، لما قاله. لكن، من أراد أن يتحدث لمدة ساعتين دون أن يقترب من حدود الغيبة، فلا مفر له من أن يكون طُلعةً واسع المعرفة محنّكاً. وأنا، على صواب ما أقول رغم كوني حيواناً، أرى الكلمات تتوارد على لساني كالذباب على العصير المخمّر. كلمات كلها خبيثة نمامة؛ بسببها، أعود فأقول ما قلته من قبل: فعلُ الشر وقوله نرثه عن آبائنا الأقدمين ونرضعه مع حليب أمهاتنا. أرى بوضوح أن الطفل الرضيع ما يكاد يُخرج يده من القماط حتى يرفعها علامة على أنه يريد الانتقام ممن أهانه، حسبما يُخيّل إليه؛ وأول كلمة مفهومة يلفظها هي أن ينادي أمه أو مربيته: يا عاهرة.

ثيبيون: هذا صحيح. وأنا أعترف بخطئي، وأريد أن تصفح عني كما صفحت عن كثير من أخطائك. ولنعقد شعرتين من شعورنا، ونرم بهما في الماء علامة الصلح كما يفعل الصبيان، ولا نغتب أحداً منذ الآن فصاعداً. وتابع قصتك التي قطعتها عند الأبّهة التي يعرضها ابنا التاجر عند توجههما إلى مدرسة جمعية يسوع.

برغانثا: وعلى الله اتكالي في كل ما يحدث. لئن صعب عليّ ترك الغيبة، فإني أفكر في استخدام علاج كان يستخدمه حلّاف كبير، فقد أراد هذا الرجل أن يتوب عن عادته السيئة، لكنه بعد كل توبة كان يحلف؛ فكان يقرص ذراعه أو يقبّل التراب تكفيراً عن ذنبه. لكنه، مع ذلك، كان يحلف. وهكذا أنا، كلما عملت خلاف تعليماتك،

وخلاف نيتي بألا أغتاب أحداً، سأعضّ على طرف لساني حتى يؤلمني فأتذكر ذنبي فلا أعود إليه.

ثيبيون: إذا استخدمت هذا العلاج، آمل أن تعض على لسانك كثيراً حتى لا يبقى منه شيء. وهكذا يصبح من المستحيل عليك أن تنمّ أو تغتاب.

برغانثا: على الأقل، سأبذل قصارى جهدي، والله هو التوّاب الرحيم. وهكذا، أقول: إن ابنَي معلمي نسيا ذات يوم محفظتهما في الفناء. فحملتها بالطريقة التي كنت أحمل بها سلة القصاب، وذهبت في إثرهما ونيتي ألا أفلتها حتى أصل المدرسة؛ حدث كل شيء كما كنت أرغب فيه. ولما رآني ابنا معلمي حاملاً المحفظة برقة من حمالتها، أمرا الخادم أن يأخذها مني. لكنني لم أرض بذلك، ولم أفلتها حتى وصلتُ بها قاعة الدرس، فأثرت ضحك الطلاب بذلك. دنوت من أكبر الأخوين، ووضعتها بين يديه بتهذيب كبير، وأقعيتُ خلف باب القاعة ناظراً من حين لآخر إلى المعلم الذي كان يقرأ من فوق منبره. لا أدري معنى الفضيلة التي ما إن أصابتني بطرف منها حتى أعجبت بالمودة والكلام واللطف والمهارة التي يعلم بها أولئك الآباء والمعلمون المطهرون، هؤلاء الأطفال، مقوِّمين من قناة شبابهم الغضّ كيلا ينحرفوا ويحيدوا عن طريق الفضيلة، الذي يرشدونهم إليه جنباً إلى جنب مع تعلم الحروف. كنت أرى كيف يؤنبونهم بعذوبة، ويعاقبونهم برحمة، ويثرون خيالهم بضرب الأمثلة، ويشجعونهم بالجوائز، ويصبرون عليهم بحكمة وأناة. وأخيراً كنت أرى كيف يصورون لهم قبح النقائص وبشاعتها فيبغضونها؛ ويزوّقون لهم جمال الفضائل فيحبونها، كي يحصلوا في النهاية على نشء صالح.

ثيبيون: لا فُضّ فوك يا برغانثا. سمعتهم يتحدثون عن هؤلاء الناس المباركين الذين لا يوجد في ممالك الأرض من يضاهيهم في النباهة؛ ولا يوجد مرشدون ولا أدلاء يدانونهم في تبيان الطريق إلى الآخرة. هم مرايا ينعكس عليها الشرف والطريق القويم والحكمة الفريدة، وأخيراً، التواضع الجمّ، وهو قاعدة يقوم عليها بناء السعادة كله.

برغانثا: كل ما تقوله صحيح؛ وأتابع قصتي فأقول: ابنا معلمي كانا مسرورين بأن أحمل لهما الحقيبة؛ وهذا ما كنت أفعله بطيب خاطر. وبذلك كنت أحيا حياة ملك؛ بل أفضل منها، لأنها كانت حياة مريحة؛ فكان الطلاب يشاركونني الدعابة، وتآلفت معهم حتى كانوا يضعون راحاتِهم في فمي، والصغار منهم كانوا يمتطون ظهري. كانوا يرمون قبعاتهم القماشية والقشّية، وكنت أعيدها إليهم نظيفة مبدياً كل علامات السرور. كانوا يُطعمونني كل ما يقدرون عليه. وإذا ما أعطوني جوزة أو حبة فول سوداني، فكانوا يُسروّن حين يرونني أقسمها، فأدع القشرة وأكل اللبّ كما يفعل القرد. وبلغ بي الأمر أني كنت أجلب الأدام في منديل وآكله كما يفعل البشر. كان الوقت شتاء. وفي هذا الفصل يكثر في إشبيلية الزبدة والخبز، فكان يقدّمهما إليّ أكثر من طالب يجهد نفسه كي أتغذّى بهما. باختصار: كنت أحيا حياة طالب دون جوع وجرب. ولا أستطيع وصفها إلا بأنها جيدة. وإذا خَلَت حياة الطلاب من الجرب والجوع فنعمّا هي! وما أبهجها وأمتعها! لأن الفضيلة والحبور يسيران فيها جنباً إلى جنب. وهكذا ينقضي الصِّبا في التعلّم والتسلية.

لكن، من عرش هذا المجد والدّعَة أنزلني سيد يدعى ها هنا، كما أعتقد، مصلحة الدولة التي إن استُجيب لها فلابد من الإخلال بمصلحة أخرى. هكذا كان الحال حين بدا لأولئك المعلمين أن نصف الساعة

الفاصل بين درس وآخر، كان يقضيه الطلاب لَيس في مراجعة الدروس وإنما بالتسلية معي، فأمروا ابنَيْ معلمي بألا يأتيا بي إلى المدرسة. أطاع الطالبان الأمر، وعدت إلى البيت وإلى مُقامي وراء الباب. غير أن السيد العجوز أصبح لا يتذكّر النعمة التي أنعمها عليّ بتركي طليقاً ليلاً ونهاراً. سلّمت عنقي إلى السلسلة، وجسمي إلى الحصيرة الصغيرة الموضوعة وراء الباب. آه! يا صديقي ثيبيون، ليتك تعلم ما أقسى عذاب الانتقال من حالة سعيدة إلى أخرى تعيسة! انظر: إذا كان البؤس والتعاسة طويلين ممتدّين، فإمّا أن ينتهيا بالمرء إلى الموت، أو أن استمرارهما يجعل من عيشهما عادةً تصلُح أن تكون عزاء في أقصى شدتهما، لأن الانتقال فجأة ودون توقع من مصير تعِس نكِد إلى مصير مُنعّم سعيد ومفرح، ثم العودة بعد قليل إلى المصير الأول، وإلى الأعمال والتعاسات الأولى، هو ألمٌ شديد إن لم يقض على الحياة فإنه يجعل من عيشها عذاباً نُكراً. أقول أخيراً، عدت إلى طعام الكلاب وإلى العظام التي كانت تلقيها إليّ إحدى زنجيات البيت؛ حتى هذه العظام كان يقاسمنيها قطّان خبيثان طليقان رشيقان، فكان من السهل لهما أن ينتزعا مني ما يسقط خارج المجال الذي تبلغهُ سلسلتي. وهكذا يا صديقي ثيبيون، منحتني السماء الخيرَ الذي كنت تطمح إليه، بأن تركتني أتفلسف قليلاً دون أن تغضب مني، لأنني لو تخليّت عن قول هذه الأشياء التي ترد الآن إلى ذاكرتي، وعما جرى لي آنئذ، لبدا لي أن قصتي ليست تامة ولا مثمرة.

ثيبيون: احذر يا برغانثا أن تكون هذه الرغبة الطارئة في التفلسف إغراءً من الشيطان. لأن الغيبة ليس لها قناع يغطي الشر ويحجبه، خير من إيحاء الواشي بأن كل ما يقوله محضُ حكم فلسفية. وإذا قال سوءاً، فهو للتنبيه؛ وإذا كشف عن عورة الآخرينً، فإنما يصدر عن حميّة؛

تأمّل حياة أيّ نمَّام، تجدها ملأى بالعيوب والوقاحة. وبعد معرفة ذلك تفلسف كما تشاء.

برغانثا: يمكنك أن تكون مطمئناً يا ثيبيون إلى أني سأتخلى عن نيتي في النميمة. إذاً، كنت أقضي يومي دون عمل؛ والفراغ هو أصل الأفكار. فعثرت وأنا أستعيد ذكرياتي على بعض الكلمات اللاتينية التي عَلِقت في ذاكرتي مما سمعته حين كنت أتردد مع ابنَيْ سيدي على الدروس التي حسّنت من مقدرتي على الفهم. فعزمت، فيما لو استطعت الكلام، أن أفيد من هذه الكلمات في المناسبات التي تعرض لي، لكن، بطريقة تختلف عما يفيد منها بعض الجهلاء. فتجد بعض الناطقين بالرومانسية[٢٢] يطلقون في أحاديثهم من حين لآخر بعض العبارات اللاتينية القصيرة والمختصرة مُوحين إلى من لا يفهمونهم أنهم علماء كبار باللاتينية، وهم لا يكادون يعرفون أن يعربوا اسماً أو يصرّفوا فعلاً.

ثيبيون: أرى ضرر هؤلاء أقل من ضرر الذين يعرفون اللاتينية حقاً: فيقوم بعضهم برشّها كالماء أمام حذّاء أو خياط.

برغانثا: نستنتج من ذلك أن خطأ من يتحدث اللاتينية أمام من يجهل هذه اللغة كخطأ من يتحدث بها وهو يجهلها.

ثيبيون: وأنا أنبّهك إلى شيء آخر هو أن معرفة البعض باللغة اللاتينية لا تُعفيه من أن يكون حماراً.

٢٢- هي اللغات التي تطورت عن اللاتينية الشعبية. وهي: الإسبانية - البرتغالية - الفرنسية - الإيطالية الرومانية - القطالونية الغليثية - ولغة روسيّون. (المترجم).

برغانثا: لاشك في ذلك، والسبب واضح. ففي عصر الرومان، كل الناس كانوا يتحدثون اللاتينية على أنها اللغة الأم، فلا مفر من أن يوجد بينهم أحد لا يُعفيه الكلام باللاتينية من أن يكون أحمقَ.

ثيبيون: للصمت في اللغات الرومانسية، وللتحدث باللاتينية، يحتاج المرء إلى الذكاء يا أخي برغانثا.

برغانثا: أوافقك على ذلك. فقد يقول المرء حماقات باللاتينية كما يقولها بالرومانسية. ولقد رأيت متأدبين مغفلين، ونحويّين ثقيلي الظل وناطقين بالرومانسية مُخبَّلين يحملون كتبهم اللاتينية التي يستطيعون بها بعث الضجر في العالم ليس مرةً واحدة، وإنما مرات عديدة.

ثيبيون: دعْ هذا وابدأ بشرح فلسفتك.

برغانثا: لقد شرحتُها. وهي ما انتهيت من قوله للتو.

ثيبيون: ماذا قلت؟

برغانثا: هذا الحديث عن اللاتينية واللغات الرومانسية الذي بدأتُه أنا، وختمتَه أنت.

ثيبيون: اتسمّي النميمة والغيبة فلسفة؟ تباً لك! قنّن يا برغانثا، قنّن هذه المصيبة اللعينة أي، النميمة، وأطلق عليها اسماً. وهي ستطلق علينا اسم ماجنين[٢٣]، أعني كلبين نمّامين. بحياتك اسكت الآن، وتابع قصتك.

٢٣- Cínico = ماجن، مستهتر، من اللاتينية Cynicu المشتقّة من الإغريقية Kyno أو Kynos = كلب. (المترجم).

برغانثا: كيف أتابعها، إن كان عليّ أن أسكت؟

ثيبيون: أعني أن تتابعها على نَسَقٍ واحد، دون أن تجعلها كالأخطبوط مضيفاً إليها ذيولاً هنا وهناك.

برغانثا: تكلم على شكل صحيح. لا تُسمّ زوائد الأخطبوط ذيولاً.

ثيبيون: هذا خطأ من قال أنه ليس غباء ولا عيباً أن نسمّي الأشياء بأسمائها الحقيقية، وكأنها أفضل طريقة لتسميتها. أنا أرى، من اللازم تسميتُها وقولها مواربةً ومجازاً، للتخفيف من الجفاء الذي يثيره سماعُها بأسمائها ذاتها. الكلمات الشريفة تنمّ عن نبل قائلها أو كاتبها.

برغانثا: بودّي أن أصدقك، وأقول إن حظي لم يرض بإبعادي عن المدرسة، وعن حياة الرغد والبهجة التي كنت أعيشها؛ ولا بوضعي وراء الباب؛ ولا بإبدال شحّ الزنجية بأريحية الطلاب، وإنما قضى بإثارة الاضطراب في هدوئي وراحة بالي. انظر يا ثيبيون، وتأكد وتحقق كما تأكدتُ وتحققتُ أنّ البؤس يلحق البائس ويعثر عليه ولو اختبأ في أقصى أركان الأرض. أقول ذلك، لأن الزنجية كانت تعشق زنجياً من عبيد البيت. هذا الزنجي كان يبيت في الدهليز الواقع بين الباب المطل على الشارع، والباب الذي أقف خلفه. وما كان هذان الزنجيان يستطيعان الالتقاء إلا ليلاً. ومن أجل ذلك، سرقا المفاتيح وصنعا نسخاً مزوّرة منها؛ وهكذا صارت الزنجية تهبط معظم الليالي وتُلْقم فمي بقطعة جبن أو لحم، فكانت تفتح الباب للزنجي ويقضيان وقتاً ممتعاً، يسهّل عليهما صمتي الذي ابتيع بأشياء كانت تسرقها الزنجية. وما هي إلا أيام حتى أفسدت ضميري رشاها. وخُيّل إليّ أني من دونها، لأطبقت فمي أيضاً وتحولت من كلب حراسة إلى كلب سلوقي. لكنّ طبيعتي الخيّرة

حرّكتني، فأردتُ أن أقوم بما يجب عليّ نحو معلمي، لأنني أقبض منه مرتبي وآكل خبزه. وهذا ما يجب على جميع الخدم أن يفعلوه، وليس الكلاب الشرفاء وحدهم، وهم المشهورون بالوفاء.

ثيبيون: نعم، يا برغانثا؛ هنا أريدك أن تجنحَ إلى الفلسفة، لأنّ هذا الكلام يصيب كبد الحقيقة والفهم السليم. هيا إلى الأمام! ولا تجعل لقصتك حبلاً إن لم أقل ذيلاً.

برغانثا: أولاً، أرجوك أن تقول لي – إن كنت تعلم – ما هي الفلسفة. أنا، وإن كنت أذكرها، فلا أعرف ما هي. وإنما يُخيّل إليّ فقط أنها شيء حسن.

ثيبيون: سأقول باختصار: هذا الاسم مركّب من كلمتين إغريقيتين هما: فيلوس، وصوفيا. فيلوس معناها «حب». وصوفيا «العلم». وهكذا، يصبح معنى الفلسفة: حب العلم. والفيلسوف (محب العلم).

برغانثا: ما أوسع علمك، يا ثيبيون! مَن علّمك الأسماء الإغريقية؟

ثيبيون: في الحقيقة، أنت كلب ساذج، يا برغانثا، لأنك تجعل من كل ذلك قضية. فهذه أشياء يعرفها حتى أطفال المدارس. وهناك، أيضاً، من يزعم معرفة اللغة الإغريقية، وهو يجهلها كما يجهل اللاتينية.

برغانثا: وهذا ما أقوله، وأريد أن يوضع أمثال هؤلاء في معصرة، ويُشدّ عليهم حتى تُستخرج عصارة علمهم، كيلا يسيروا خادعين الناس ببريق كلماتهم الإغريقية المحطّمة، واللاتينية المزيفة، كما يصنع البرتغاليون بزنوج غينيا.

ثيبيون: الآن، نعم، يا برغانثا تستطيع أن تعضّ على لسانك، وأقطع لساني أنا. لأن كل ما تقوله غيبة.

برغانثا: نعم! لو لم أكن مجبرا على القيام بما قام به كوروناداس الصوري. فقد وضع هذا الرجل قانوناً بألا يدخل أحد دار بلدية مدينته بالسلاح تحت طائلة فقدان الحياة. وغفل ذات يوم فدخل البلدية متقلّداً سيفه، فنُبِّه إلى ذلك، وتذكر القانون الذي وضعه، فامتشق حسامه وغرزه في صدره. فكان واضع القانون أول من خرقه ودفع الثمن. ما قلته أنا، ليس وضع قانون، وإنما وعد بأني سأعض على لساني حين أنمّ وأغتاب. لكن الأشياء اليوم، ليست بمضمون الأشياء القديمة وقسوتها، فاليوم يوضع قانون، وغداً يُنقض. ربما كان من الأنسب أن يحصل هذا. فقد يعد أحدهم بإصلاح عيوبه، وبعد هنيهة يسقط في عيوب أكبر. أول أمر تمجيد النظام، والأمر الآخر تطبيقه. فبين القول والفعل فجوة كبيرة، فلْيعضّ الشيطان على لسانه، فأنا لا أرغب في أن أعض لساني، ولا القيام بمكرمة وراء هذه الحصر حيث لا يراني أحد يمكن أن يُثني على قصدي الشريف.

ثيبيون: على هذا يا برغانثا، لو كنت بشراً لكنت مرائياً ولكانت الأعمال التي تقوم بها مفتعلة وملفّقة ومزورة تغطيها بغطاء من الفضيلة، ليثني عليك الناس فقط، كما يفعل المراؤون جميعاً.

برغانثا: لا أدري ما كنت أفعله حينئذ. لكنني أعلم ما أفعله الآن، هو ألا أعض على لساني مادام أمامي كثير من الأشياء لأقولها، ولا أدري متى وكيف أختمها. وأخشى ما أخشاه أن تطلع علينا الشمس ونظل متخفّين وقد فقدنا القدرة على الكلام.

ثيبيون: الخير فيما تأتي به السماء. تابع قصتك ولا تنحرف عن الطريق القويم باستطرادات مزعجة، وبذلك تنهيها سريعاً، مهما تكن طويلة.

برغانثا: أقول إذاً، لما رأيت وقاحة الزنجيين واختلاسهما وسوءهما، صمّمت، وأنا الخادم الأمين، أن أقف في وجههما بكل الوسائل الممكنة، ولديّ من القدرة ما أحقق به نيتي. كانت الزنجية تنزل لتلهو مع الزنجي واثقة بأنها ستكمّ فمي بقطع اللحم والخبز والجبن التي تلقيها إليّ. ما أشد فعل الرشا، يا ثيبيون!

ثيبيون: فعلها كبير. لا تتلهَّ وتابع.

برغانثا: أتذكر أني سمعت المعلم أيام المدرسة يقول مثلاً لاتينياً، وهو ما يُسمّى حكمة. يقول المثل: «هابيت بوفيم ان لينغوا».

ثيبيون: أوه ما أسوأ الساعة التي حشرت نفسك فيها باللاتينية! أنسيت فوراً ما قلناه منذ قليل حول الذين يدسّون اللاتينية في أحاديثهم باللغات الرومانسية؟

برغانثا: هذا المثل اللاتيني يأتي هنا ضربة لازب. اعلم أن الإثينيين كانوا يستخدمون عملة نقدية نُقشت عليها صورة ثور. فإذا تخلّى أحد القضاة عن قول الحق وإقامة العدل بسبب الرشوة، كانوا يقولون: «هذا القاضي يضع الثور على لسانه».

ثيبيون: التطبيق خاطئ.

برغانثا: أليس واضحاً جداً أن أعطيات الزنجية، أخرستني أياماً

طوالاً، حتى ما كنت أرغب في النُباح ولا أجرؤ عليه حين كانت تنزل لتلتقي معشوقها الزنجي. ولذلك أعود فأقول إنّ الرشا ذات مفعول كبير.

ثيبيون: سبق أن أجبتك بأن مفعولها قوي. ولولا الاستطراد الطويل لأتيتك بألف مثال يثبت تأثير الرشا الكبير. ولربما قلتها لك، إن سمحت السماء بالوقت والمكان والنطق لقص حياتي عليك.

برغانثا: أعطاك الله ما تريد، واصغ إليّ. نيتي الطيبة قاطعت أعطيات الزنجية. ذات ليلة ظلماء كانت هذه نازلة من أجل تسليتها المعتادة، فهجمت عليها دون أن أنبح كيلا يضطرب أهل البيت. وفي لحظة واحدة، جعلت قميصها مزقاً، ونهشت من فخذها قطعة. وهي سخرية كانت كافية لجعلها طريحة الفراش حقاً لمدة ثمانية أيام، متظاهرة لأسيادها بأنها مريضة بما لا أدري. شفيت، وعادت ليلة أخرى، وعدتُ إلى مهارشتها دون أن أعضها، لكني خمشت جسمها كله، وصارت كغطاء خُبط بالعصا. معاركنا كانت صامتة، وكنت أخرج منها ظافراً دائماً، والزنجية مصابة بأذى وفي أسوأ حال. لكن غيظها عليّ تجلّى في جسمي وصحتي. فسَطَتْ على الطعام والعظام المقدمة لي. وأخذت عقد فقرات ظهري تبرز من تحت جلدي شيئاً فشيئاً. بالرغم من كل ذلك، وحرماني من الطعام، لم تستطع منعي من النباح. لكن الزنجية أرادت أن تقضي علي مرة واحدة. فأحضرت لي إسفنجة قلتها بالشحم. عرفت الشر ورأيت أن أكلها أسوأ من أكل العوسج. فمن يأكلها، تنتفخ معدته، ولا تخرج منها حتى تخرج الحياة في إثْرها. وإذ بدا لي أنني لن أستطيع حماية نفسي من مكائد عدويّ النذلين، صممت على أن أضع بيني وبينها سدّا، فاحتجبت عن الأنظار. وذات يوم، وجدتني طليقاً،

فتسللت إلى الشارع دون أن أقول كلمة وداع لأحد من أفراد البيت. وبعد أقل من مئة خطوة، قيّض لي الحظ اللقاء بمأمور القضاء الذي ذكرت في بداية قصتي أنه كان من كبار أصدقاء معلمي نيكولاس ديل رومو. ما كاد يراني حتى عرفني وناداني باسمي، وعرفته أنا أيضاً، ولما دعاني، دنوت منه باحتفالاتي ومداعباتي المعتادة. أمسك بي من عنقي وقال لأتباعه: «هذا كلب حماية مشهور، كان ملك أحد أصدقائي. خذوه إلى بيتي». سُرّ الأتباع وقالوا في أنفسهم، إنْ كان كلب حماية فهو مفيد للجميع. أرادوا أن يقبضوا عليّ ليقودوني، فقال معلمي: لا حاجة بكم للقبض عليه. هو نفسه سيسير معكم لأنه يعرفني. نسيت أن أقول لك إن طوق الإبر الفولاذية نزعه من عنقي غجريّ في أحد الخانات حين ابتعدت وفارقت القطيع. كنت أسير في إشبيلية إذاً، دون طوق. لكن المأمور وضع في عنقي طوقاً مرصّعا بنحاس موريسكي. تأمل يا ثيبيون دولاب حظي المتقلب. فبالأمس كنت طالباً، واليوم صرت تابعاً.

ثيبيون: هذا هو حال الدنيا. ولا موجب لتبالغ بشكواك من تقلبات الحظ، وكأن هناك فرق بين صبي جزّار، وتابع مأمور قضاء. أنا لا أستطيع الصبر على سماع بعض الناس يندبون حظهم، وجُلّ مبتغاهم وأملهم أن يصبحوا أتباعاً، فيصبون على هذا الحظ لعناتهم، ويكيلون له السباب لا لسبب إلا ليحسب من يسمعهم إنهم انتقلوا من مكانة عالية جليلة جيدة، إلى مقام وضيع.

برغانثا: أنت على صواب. واعلم أن هذا المأمور كانت له صحبة ورفقة مع أحد الكتبة. كانا كلاهما يتدعّران مع امرأتين من سِفلة الناس في كل شيء. حقاً، كانت عليهما مسحة من جمال، لكن، ما كانت تنقصهما خفة الدعارة ولا مكرها. كان الرجلان يستخدمان

المرأتين شبكة وطعماً للصيد المباغت، على هذا الشكل: كانتا تتلفّعان بثيابهما فلا يبين منهما شيء غير شكل جسميهما، لكنهما على بعد رمية من ذلك، تكشفان عن أنهما ذواتا حياة مستهترة. كانتا تسعيان دائماً لصيد الغرباء، وحين يقام معرض في قادش وإشبيلية يحمل معه رائحة الربح، لا تدعان بريتونياً واحداً دون أن تنقضّا عليه. وما إن يقع رجل دَسِم في شبكة هاتين النظيفتين، حتى تُبلغا المأمور والكاتب بوجهتهما وباسم الفندق. وبعد أن تختلي الواحدة بصاحبها، يقوم المأمور والكاتب بمداهمتهما، والقبض عليهما بتهمة الزنى. لكنهما ما كانا يقودانهما إلى السجن أبداً، لأن الغرباء كانوا يفكّون أسرهم بالمال.
حدث ذات مرة أن اصطادت لاكوليندريس، وهي إحدى صديقاته، أحد البريتونيين الأثرياء، الذي اتفقت معه على قضاء العشاء والليلة في الفندق. فأخبرت صديقها بذلك. فما كادا يتعرّيان حتى داهمهما المأمور والكاتب وتابعان وأنا. اضطرب العاشقان وبالغ المأمور في وصف الجرم. وأمرهما أن يرتديا ثيابهما على عجل ليُودعهما السجن. تكدّر البريتوني، ورقّ قلب الكاتب شفقة وبعد توسلات صادقة خفّف العقوبة إلى مائة ريال فقط. بحث البريتوني عن بنطاله الصوفي الذي كان وضعه على كرسّي عند قدم السرير، لأن المبلغ الذي سيشتري به حرّيته كان فيه. لم يظهر البنطال وما كان له أن يظهر، لأنني منذ دخولي الفندق، سطعتني رائحة لحم خنزير فأنستني كل شيء. قادني الشمّ إليه، ووجدته في جيب البنطال. أقول إني وجدت فيه قطعة من لحم الخنزير المشهور. وللحصول عليها وانتزاعها دون ضوضاء، سحبت البنطال إلى الشارع، وهناك انكببْت على اللحم بكلّ نهم، ولمّا عدت إلى الفندق، وجدت البريتوني يُطلق الصيحات مطالباً برطانة قبيحة، لكنها مفهومة، بإعادة بنطاله الذي يحوي خمسين اسكوديّة ذهبية. فخُيّل

إلى الكاتب أن كوليندريس، أو التابعين سرقاها. وخامر المأمورَ التفكيرُ ذاته. فاستدعاهم كلاً على حدة. لم يعترف أحد منهم، فتُركوا جميعاً. وإذْ رأيت ما يحدث، عدت إلى الشارع حيث تركت البنطال من أجل إعادته، لأن النقود لا تفيدني شيئاً. فلم أعثر عليه. فلعلّ أحد المحظوظين وجده وهو مارٌّ من هناك. أصيب المأمور بالإحباط لما رأى أن البريتوني أصبح دون مال. وفكّر في أن يبتزّ صاحبة الفندق ويسلبَها ما افتقده البريتوني. فاستدعاها. فجاءت وهي شبه عارية؛ لم يسرّها كثيراً سماع صيحات البريتوني ولا شكواه، ولا رؤية كوليندريس عارية باكية؛ ولا المأمورِ غاضباً؛ ولا الكاتب ساخطاً؛ ولا التابعين يقمشان كل ما يجدانه في الفندق. أمرها المأمور أن تلبس ليُزج بها في السجن لأنها تجمع في بيتها رجالاً ونساء من ذوي السلوك السيّء. فتعالتْ حينئذ الأصوات وزاد الاضطراب: «سيّدي المأمور، سيدي الكاتب، لا تلعبا معي هذه اللعبة، لأنني ألمح ما تحيكان، معي لا يفيد الترغيب ولا الترهيب. أغلقا فماكما وانصرفا سالمين؛ وإلا، واللهِ، سأفلش هذه البضاعة كلها وأفضح سرّ هذه القصة من أولها. أنا أعرف السيدة كوليندريس جيداً، وأعرف أن السيد المأمور يغطي عليها منذ أشهر عدّة. ولا تجعلاني أصرّح بأكثر مما صرحت. أعيدا النقود إلى هذا السيد، فنظل بذلك أحبّاء، لأنني امرأة شريفة وزوجي لديه وثيقة نسب شريف وقعها الملك، وتتدلّى منها أختامها الرصاصية. الحمد لله أنّي أقوم بنظافة تامّة وبنظام. لوحة تعريفة المبيت معلّقة بحيث يراها الناس جميعاً. إيّاكما وإثارة المشاكل التي أعرف كيف أنفض يدي منها. ما أجملني، لو جمعت بين النساء والرجال في فندقي! كل نزيل يحمل مفتاح حجرته. وأنا لست خمس عشرة عيناً ترى ما وراء سبعة حيطان».

دُهش معلماي لسماعهما حديث صاحبة الفندق، ولرؤيتها كيف أنها تقرأ سيرتهما. ولمّا تأكد لهما أنهما لن يحصلا على المال من أحد إنْ لم تدفع هي، ألحّا على مسألة سوقها إلى السجن، فراحت تشكو إلى السماء جورهما وباطلهما في غياب زوجها ودون مراعاة لوضعه النبيل. فالبريتوني كان يجأر من أجل الاسكوديات الخمسين. والتابعان كانا يصرّان على أنهما لم يعثرا على السراويل؛ والكاتب بصمته كان يلح على المأمور أن يفتش ثياب لاكوليندريس، لأنه كان يشتبه بها بأنها سارقة النقود، فقد كان من عادتها أن تبحث في جيوب أولئك الذين يعاشرونها. ودافعت هذه عن نفسها زاعمة أن البريتوني كان سكران؛ ولا شك في أنه يكذب في مسألة النقود. في الواقع، كل شيء كان فوضى وصراخاً وأيماناً لا يبدو أنها ستهدأ أو يهدؤون هم، لو لم يدخلْ في تلك الأثناء ملازم كان يقوم بجولة على ذلك الفندق، فقادته الأصوات إلى حيث يختصمون، فسأل عن سبب تلك الأصوات، فانبرت صاحبة الفندق تشرحها له شرحاً مفصلاً وبيّنت من هي الحورية كوليندريس التي كانت ارتدت ثيابها. وكشفت عن صداقتها المعروفة للسيد المأمور. وفضحت حيلها وطريقتها في السرقة. وبرأت نفسها بأنها لا توافق على دخول امرأة مشتبه بها بيتها؛ ونصبت ذاتها قديسة، وجعلت زوجها مطهّراً. وصاحت على إحدى فتياتها التي هُرعت فأحضرت من أحد الصناديق وثيقة نبل زوجها ليراها السيد الملازم زاعمة أن امرأة رجلٍ على هذا القدر من الشرف لا يمكنها أن تفعل شيئاً سيئاً. وإذا كانت تمارس هذا العمل الفندقي، فلعدم قدرتها على عمل شيء آخر. وأن الله يعلم كم يُثقل عليها، وكانتْ تتمنّى أنْ يكون لها دخل آخر يكفيها خبز يومها ومعيشتها فتترك هذا العمل. أُثيرت حفيظة الملازم بثرثرتها وادّعائها النسب الرفيع. فقال لها: «أختي، صاحبة الفندق، أصدّق

أن زوجك يحمل وثيقة نسب نبيل. بالتالي، أنت تُقرّين بأنه من نبلاء الخانات». «وبشرف كبير - أجابت ربة الفندق - وأيّ نسب كبير ليس حوله قيل وقال؟». «ما أقوله، يا أخت هو أن تلبسي؛ ولا مفر من زجّك في السجن». هذا الخبر الجديد جعلها تسقط أرضاً؛ وراحت تخمش وجهها، وتُكثر من صراخها. لكن الملازم الصارم الشديد ساقهم، بالرغم من ذلك، إلى السجن جميعاً، وهم البريتوني، لاكوليندريس، وصاحبة الفندق؛ وعلمت بعد ذلك، أن البريتوني فقد الإسكوديات الخمسين، وعشراً أخرى حُكم بها عليه نفقات، ودفعت ربة الفندق مثلها؛ أما كوليندريس، فقد أطلق سراحها من باب خلفي، ويوم إطلاق سراحها، اصطادت بحاراً دفع عن البريتوني بالوشاية الكاذبة ذاتها.

انظر يا ثيبيون ما أكبر المشاكل التي نجمت عن شراهتي!

ثيبيون: الأفضل أن تقول عن وضاعة معلميك.

برغانثا: اسمع إذاً، هما وإن ظلا يخرقان القانون، فإنه يصعب عليّ أن أتناول مأموري القضاء والكتبة بسوء.

ثيبيون: أجل، سوء أحدهم لا يعني تعميمه على الجميع، نعم، هناك كثير، وكثير جداً من الكتبة الصالحين، الصادقين، المستقيمين الميالين إلى الملذات دون إضرار بالآخرين، نعم، ليسوا كلهم من رعاة الجريمة، ولا هم يتحرون حياة الآخرين، للإيقاع بهم في شرك المحاكم؛ ولا يتفقون مع القضاة من أجل: «حكّ ظهري، أحك ظهرك». ولا كل المأمورين يتواطؤون مع المتسكعين والغشاشين أو أن لديهم صواحب للوشاية بالناس، كما تفعل صديقتنا معلمك؛ هناك كثير، كثير جداً من الأشراف بالطبع، يعيشون حياة نبيلة. معظمهم ليسوا حمقى ولا وقاحاً، ولا

سيئي التربية، ولا نشالين؛ ولا هم ممن يسعون في الفنادق متحرين عن الأجانب ليجدوا هنة واحدة، فيقصموا بها ظهور أرباب تلك الفنادق، حقاً، ليسوا كلهم ممن يقبض ويُخلي السبيل؛ أو هو قاض ومحام متى شاء.

برغانثا: معلمي كان يتطلع إلى أبعد من ذلك. فقد كان يسلك طريقاً مختلفة؛ كان يدّعي الشجاعة، والقيام بأعمال دهم مشهورة، وكان يشهر شجاعته دون خطر على حياته؛ ولكن، على حساب جيبه. ذات يوم، داهم وحده ستة من المجرمين عند باب شيريش، دون أن أستطيع مساعدته، لأنني كنت ملجوماً بحبل يمنعني من استخدام فمي؛ وبه كنت أسير نهاراً، ويُنزع عنّي ليلاً. دهشت لما رأيت اندفاعه وحماسته وشجاعته. وهكذا دخل ثم خرج حاملاً سيوف المجرمين الستة كأنها عصيّ من صفصاف. كان أمراً عجيباً أن ترى الخفة التي يهاجم بها؛ والطعنات التي يسددها؛ وحذره ويقظته كيلا يؤخذ غدراً. وأخيراً صار في نظري ونظر كل من شهد الوقيعة، أو علم بها مغواراً لا يُشقّ له غبار. قاد خصومه من باب شيريش حتى مدرسة روديريغو التي تبعد مائة خطوة عنه. أودعهم السجن، وعاد ليجمع غنائم المعركة التي كانت ثلاثة أغماد، ثم ذهب ليعرضها على الضابط سارامييتو دِ بايداريس الذي اشتهر بتحطيم عصابة ساوثيدا. كان الناس ينظرون إلى معلمي وهو يعبر الشارع مشيرين إليه بالبنان. وكأني بهم يقولون: «هو ذاك الذي تصدّى وحده لنخبة شجعان الأندلس». وقضى سحابة نهاره متنقلاً في المدينة مبرزاً نفسه لعيون الناس، حتى أدركنا الليل في تريانا، أو بالحرا في شارع قرب / مولينو ديلا بولبيرا /. رصد معلمي المكان خشية أن يراه أحد، ثم دخل بيتاً وأنا في إثره؛ فوجدنا في أحد الأفنية

جميع أبطال المعركة مفكوكي الإزار ودون سلاح. كان أحدهم، ولعله ربّ البيت، يحمل جرة كبيرة من الخمر بيد، وباليد الأخرى كأساً كبيرة ملأها بالخمر النبيل المُزبد شارباً نخب الرفاق جميعاً. وما إن لمحوا معلمي حتى هبّوا جميعاً لاستقباله بحفاوة، وشربوا نخبه وأثنى هو عليهم جميعاً ليبدو لطيفاً محبباً وصديقاً لا يغضب أحداً من أجل أمور تافهة. ولو حدثتك الآن عما حدث هناك؛ وعن العشاء الذي تناولوه؛ وعما رووه عن مشاجراتهم وسرقاتهم؛ والسيدات اللاتي حمدوا معاشرتهن واللاتي ذمّوهن؛ وعن الثناء الذي تبادلوه فيما بينهم. وعما ذكروه عن الشجعان الغائبين؛ وعن المهارة التي أبديت في وقتها: ناهضين وسط العشاء، مطبقّين عملياً الحيل التي يلجؤون إليها، متسايفين بالأيدي؛ وعن المفردات المنتقاة التي كانوا يستعملونها؛ وأخيراً لو حدثتك عن شخص صاحب الفندق الذي يوقرونه جميعاً كسيد وأب، لوضعت نفسي في متاهة ما استطعت الخروج منها حين أريد. وقد تأكد عندي أن ربّ البيت المدعو / مونيبوديو/ كان غطاءً للصوص وركيزة للمجرمين؛ وأن مشاجرة معلمي كانت بالتواطؤ معهم. ذلك بالظروف المحيطة بها: من انسحابهم وتركهم سيوفهم. دفع معلمي ثمن الأكلاف نقداً، يضاف إليها ما رتبه عليه مونيبوديو من كلفة العشاء الذي استمر حتى الصباح بسرور كبير للجميع، وختامها كان وشاية لمعلمي بقواد غريب متحفز، دخل المدينة حديثاً، لا شكّ أنه كان أقوى منهم، فوشوا به حسداً. في الليلة التالية، قبض عليه معلمي وهو في ثياب النوم في سريره. ولو أنه كان في كامل استعداده لما أمكن القبض عليه بهذه البساطة، إذا أخذنا بالحسبان ضخامة جسمه. بالقبض على هذا الرجل، الذي تم غبّ المشاجرة، زادت شهرة معلمي الذي هو أجبن من أرنب. لكنه، بفضل الطعام والشراب كان يغذي

شهرته بأنه شجاع. كلّ ما كان يكسبه من عمله وحيله، كان يصبّ ويغور في قناة الشجاعة. لكن، اصبر عليّ، واسمع الآن قصة حدثت له، دون أن أضيف إلى الحقيقة، أو أنقص منها حبة.

لصّان سرقا في / انتيكيرا / حصاناً أصيلاً، وساقاه إلى إشبيلية لبيعه دون خطر. فلجأا إلى حيلة تبدو ذكية متقنة. نزلا في فندقين مختلفين. وتوجه أحدهما إلى المحكمة، وتقدم بطلب ادعى فيه أن / بدرو دِ لوسادا / مدين له بأربعمائة ريال اقترضها منه؛ وأبرز سنداً بذلك. أمر الملازم أن يسأل لوسادا إن كان يعترف بالسند. فإن أقر به، إمّا أن يؤخذ رهن بقيمته، أو يودع في السجن. وكلف معلمي والكاتب صديقه بهذه المهمة. ذهب بهما اللص إلى حيث يقيم صاحبه الذي اعترف فوراً بالسند وأقر بالدين، وقدم ضمانة للوفاء به حصانه الذي أثار طمع معلمي فيه منذ أول نظرة، وعدّه في جملة ممتلكاته إن سمح ببيعه. رأى اللص أن تتم الإجراءات القانونية، ووضع الحصان في المزاد، وزيد به حتى خمسمائة ريال عن طريق شخص ثالث أتى به معلمي ليشتريه له. كان الحصان يساوي أكثر مما دفع فيه، لكن، إذا كانت مصلحة البائع في اختصار المزاد، فيرسو عند أول زيادة تغطي المبلغ. قبض اللص الأول المال الذي ليس له، والآخر وثيقة السداد التي لم يكن بحاجة إليها. وصار معلمي مالك الحصان الذي كان شرّاً عليه من براقش على أهلها. أطلق اللصان أرجلهما للريح، وقام معلمي بإصلاح عدة الحصان وإكمال نواقصها، وبعد يومين، ظهر في ساحة سان فرانسيسكو ممتطياً ظهره بفخفخة وأبّهة لا تضاهيها فخفخة فلّاح يوم العيد. ألف تهنئة تلقاها على هذا الشراء الموفق، مع التأكيد بأن الحصان يساوي مائة وخمسين / دوكادو / بالتمام والكمال. لكنه بذهابه وإيابه، كان يمثل مأساته على مسرح

تلك الساحة المذكورة. إذ بَينا هو في أوهامه وتخيلاته، فإذا برجلين حسني الطلعة والثياب، يدنوان منه، ويخاطبه أحدهما «الحمدلله! ها هو ذا حصاني الذي سُرق مني منذ عدّة أيام في أنتيكيرا». كل من كان معه، وهم أربعة خدم، شهدوا بأنه يقول الحقّ. وان هذا الحصان هو بيديهييرو، الحصان المسروق. ذهل معلمي. وقاضاه صاحب الحصان. قدّمت حجج ودلائل. وكانت حجج هذا الأخير أبْين. فصدر الحكم لمصلحته، ونزعت ملكيّة الحصان من معلمي. عرف استهزاء اللصين به ببيعه ما سرقاه، عن طريق العدالة وبتوسطها، وسُرّ الناس كلّهم من أن طمع معلمي أفقده نقوده. لم تقف مصيبته عند هذا الحدّ. ففي تلك الليلة خرج الضابط بنفسه ليقوم بجولة، بعد أن نُمي إليه أن لصوصاً يعيثون فساداً في أرجاء حيّ سان خوليان. عند عبورنا أحد التقاطعات لمحنا رجلاً يركض، فأمسكني الضابط من طوقي وأغراني به: «هات اللصّ يا بطل، هاته، هاته!». وأنا الذي أرهقني شرور معلمي، قمت بتنفيذ ما أمرني به الضابط لا ألوي على شيء؛ وهجمت على معلمي ذاته، دون أن يستطيع الدفاع عن نفسه، وأوقعته أرضاً؛ ولو لم يخلص من بين يدي، لمزعته تمزيعاً. وبصعوبة استطاعوا تخليصه. أراد المرافقون أن يعاقبوني ويضربوني بالعصي. وهمّوا أن يفعلوا، لو لم يقل لهم الضابط: «لا يلمسه أحد، قام الكلب بما أمرته به». لمّا عرفتُ خبث العمل، تسلّلت من فتحة السور دون أن أودع أحداً، وخرجت إلى البرية، وقبل الصبح، كنت في (مايرينا) وهو مكان يقع على بعد أربعة فراسخ من إشبيلية. شاء حسن حظي أن أعثر بكتيبة جنود ستُبحر من قرطاجة، كما قيل لي؛ كان في الكتيبة أربعة مجرمين من أصدقاء معلمي، وقارع طبل من المرافقين والمشعوذين مثله مثل معظم قارعي الطبول. عرفوني جميعاً، وتحدثوا إليّ كلهم. وهكذا سألوني عن معلمي، وكأنما

يجب عليّ أن أجيبهم. لكن قارع الطبل أبدى اهتماماً أكبر بي، ولذلك صممت على أن أدبر أمري معه، إن أراد ذلك، وأتبعه في تلك الرحلة التي قد تقلّني إلى إيطاليا أو الفلاندر. يبدو لي، كما ينبغي أن يبدو لك، أن السعي في الأرض والاحتكاك بناس مختلفين يجعلك من الرجال الحكماء، على عكس المثل القائل: «من كان أحمق في إشبيلية، فهو أحمق في قشتالة».

ثيبيون: هذا صحيح جداً. أذكر الآن أنني سمعت أحد معلمي الذي كان على جانب كبير من الذكاء يقول إن أوليس الإغريقي المشهور، عرف بلقب الحكيم، لسبب واحد هو أنه طاف بلداناً كثيرة واحتك بناس من مشارب شتّى، وبأمم مختلفة. لذلك أثني على نيّتك بالذهاب إلى حيث يقودونك.

برغانثا: ما جرى هو أن قارع الطبل صار لديه ما يمكنه من إظهار شعبذاته. فبدأ يعلمني الرقص على صوت الطبل. والقيام بأعمال تقليد أخرى جدّ غريبة حتى يصعب على كلب آخر غيري أن يتعلمها. كان العمل في تزويد السفينة بالمؤن والعدد يجري ببطء شديد. لم يكن يعوق عملنا رئيس من الرؤساء. فالنقيب كان شاباً، لكنه سيد كبير، ومسيحي متدين. والملازم لم يكن قد مضى على تركه البلاط وخدمة الكبار غير أشهر معدودات. أما الرقيب فكان ماكراً ذكياً يقوم بتزويد الكتيبة منذ انطلاقها حتى ساعة إبحارها. كانت تلك الكتيبة ملأى بمجرمين خبثاء يفعلون المنكر حيثما حلّوا، فيوجهّون السباب إلى من لا يستحقه. فمن تعاسة الأمير الصالح أن يظنّ به السوء بعضُ رعاياه، بسبب ذنوب ارتكبها رعايا آخرون. لأن بعضهم متعسّف إزاء البعض الآخر، ولا ذنب للأمير بذلك، لأنه لو أراد أو حاول إصلاح هذه الشرور لما استطاع. ذلك بأن

أمور الحرب أو معظمها تجلب معها الفظاظة، والشدّة والانفلاش. أخيراً، عرفت في أقلّ من خمسة عشر يوماً، بفضل ذكائي، والمهارة التي دربني عليها من اخترته ليكون رئيسي، كيف أقفز تحيّة لملك فرنسا، ولا أقفز من أجل صاحبة الحانة. وعلّمني أن أشبّ كحصان نوبوليتاني، وأدور في دائرة كبغل الطاحون، إضافة إلى أشياء أخرى، لو عرضتها، لظُنّ أنّ من يقوم بها شيطان تلبّس صورة كلب. أُطلِق عليّ اسم «الكلب العالم». وما كنا نبلغ مقرّ إقامتنا حتى كان معلمي يدقّ الطبل ويسير في أرجاء الحيّ معلناً أن الكلب العالم سيعرض لطائفه ومهاراته العجيبة. فمن يرغب في الفرجة عليه، فليحضر إلى البيت كذا، أو مشفى كذا، مصطحباً ثماني أو أربع مرابطيات[٢٤]، حسب كبر الحيّ أو صغره. وبهذه الطنطنات ما كان يبقى أحد من سكان الحي حتى يأتي للفرجة علي. وما كان أحد منهم يغادر إلا وهو مسرور، معجب بما رآه مني. كان معلمي يجني أرباحاً طائلة، ويقتات على حسابه ستة من رفاقه يعيشون عيشة الملوك. لكنّ الطمع والحسد أيقظا في هؤلاء المجرمين الرغبة في خطفي. وراحوا يبحثون عن مناسبة مواتية لتنفيذ تلك الرغبة، لأن حبّ كسب العيش بالراحة له أنصار ومريدون كثيرون. ولذلك ينتشر المشعبذون في إسبانيا، وعارضو الصور وبائعو الدبابيس والأغاني. والمبلغ المتحصّل لديهم، لو باعوا كلّ ما في أيديهم، لما كفاهم قوت يوم واحد. ومع ذلك، لا يبرح أحدهم الحانات والمطاعم طول العام. ومن هنا، جاءتني الفكرة بأن تكاليف سكرهم وعيشهم يأتي من مصدر آخر غير أعمالهم، كل هؤلاء الناس متسكعون، تافهون لا فائدة فيهم. وكل منهم عبّاب خمر وتلقامة خبز.

٢٤- عملة إسبانية قديمة، اختلفت قيمتها باختلاف العصور، وباختلاف المعدن المسكوكة منه، سواء أكان ذهباً أم فضة أم نحاساً. (المترجم).

ثيبيون: لا تزد يا برغانثا. ولا تعد إلى ما سبق، وتابع حديثك، فالليل يمضي ولا أرغب في أن يُضرب علينا الصمت عند شروق الشمس.

برغانثا: إليك القصة فاستمع. لما رأى معلمي كم كنت أجيد تقليد الحصان النابوليتاني، كان من السهل عليه أن يُضيف شيئاً جديداً إلى ما سبق. فجعل لي غطاء من الجلد، وسرجاً صغيراً أحكم ربطه فوق كتفيّ، ونصب فوقه صورة صغيرة لرجل يحمل رمحاً قصيراً؛ كل ذلك من أجل اجتياز حلقات. وهكذا علمني أن اخترق عمداً حلقة موضوعة بين عصوين؛ وفي اليوم المقرر لاختراقها، كان ينادي أن الكلب العا لم سيجتاز الحلقة ويقوم بطرائف جديدة لم يُشهد مثلها أبداً. كنت أقوم بها جميعاً، وأنا كاره لها، كيلا يبدو معلمي كاذباً. وصلنا بعد أيام معدودات إلى مونتيا بلدة التقي الكبير المشهور المركيز بريغو عميد عائلة أغيلار إي مونتيا. أُمّنت إقامة معلمي في المشفى بناء على طلبه. كانت شهرتنا قد سبقتنا حاملةً أخبار الكلب العالم ومهارته. وبعد أقل من نصف ساعة من إطلاق إعلانه المألوف، غصّ الفناء بالناس. ابتهج معلمي لما رأى أن الغلة ستكون وافرة؛ فأسرف ذلك اليوم بعرض شعبذاته. بدأ الحفل بقفزات قمت بها مخترقاً طوقاً هو إطار غربال. كان يطلب ذلك مني بالأسئلة المعتادة. فإذا أنزل عصا يحملها في يده، كان ذلك إيذاناً بأن أقفز. وإذا رفعها إلى الأعلى، كان إشارة إلى أن امتنع عن القفز. أول طلب ذلك اليوم، (ولن أنساه ما حييت) كان قوله: «إيه! يا صديقي، اقفز تحية للملك العجوز الأخضر الذي تعرفه، والذي يصبغ لحيته بالخل. وإذا كنت لا ترغب، فاقفز من أجل الباذخة المتبرّجة دونيا بمنبيلا ده بلافاغونيا، التي كانت رفيقة الغليثية الشابة التي دخلت في خدمة بالدسيناس. ألا يعجبك الطلب يا بني؟ إذاً، اقفز من أجل الطالب

باسيناس الذي يحسب نفسه مجازاً وهو لا يحمل أي درجة عملية. أوه! أراك اليوم كسولاً! لماذا لا تقفز؟ أنا أعرف حيلك. اقفز الآن إكراماً لمشروب اسكيبياس الذي يُضاهي في شهرته خمر ثيودادريال وسان مارتن، وريادابيا». وأنزل عصاه الصغيرة، فقفزت؛ ولحظت علامات الخبث على محياه، وعرفت سوء طويّته. التفت بعدئذ إلى الحضور، وصاح بصوت عال: «لا تظنّ أيها المجلس الكريم، أن ما يعرفه هذا الكلب أمر مضحك؛ علّمته أربعاً وعشرين حركة، من أجل مشاهدة أقلّها شأنا يجدر بالمرء أن يسير ثلاثين فرسخاً. إنه يرقص الثارابندا، والتشاكونا أفضل من مخترعتهما ذاتها. يشرب رطلين من الخمر دون أن يدع قطرة واحدة منهما. ويدندن بـ «صول، فا، مي، ره»، بشكل جيد كأي عازف كنيسة، كل هذه الأشياء وأشياء أخرى غيرها أمتنع عن قولها، سترونها في الأيام التي ستمكث فيها الكتيبة هنا. والآن سيقوم كلبنا العالم بقفزة أخرى ثم ندخل في المهم». بذلك، علّق الحضور الذين سماهم مجلساً، أنفاسهم؛ وأشعل فيهم الرغبة في ألا يفوتهم شيء مما كنت أعرف أن ألعبه. التفت إليّ معلمي قائلاً: «عُد يا بني، وانقض القفزات التي قمت بها بمهارة خفيّة وإتقان. لكنها، هذه المرة، يجب أن تكون تكريماً للساحرة المشهورة التي يُحكى أنها في هذه المنطقة». ما كاد يلفظ ذلك، حتى انطلق صوت المضيفة، وكانت عجوزاً في السبعين من عمرها، قائلة: «أيها الحقير المشعبذ، الدّجال ابن القحبة، هنا، لا توجد ساحرة أبداً، وإذا كنت تقصد لاكاماتشا، فقد دفعت هذه ثمن خطيئتها. وهي الآن، حيث يعلم الله وإذا كنت تشير إليّ، فأنا لست، ولم أكن ساحرة في حياتي. ولئن اشتُهرت بهذا الاسم، فذلك بسبب شهود الزور، وشكلية القانون، والقاضي المتهوّر المجهول. كل الناس تعلم أني أعيش حياة ندم وتوبة، ليس عن أعمال السحر التي لم

أفعلها، وإنما عن خطايا أُخَر كثيرة اقترفتها. اخرجْ، إذاً من المشفى أيها الطبال المضحك! وإمّا لا، فسوف أخرجك، والله، بطريقة أخرى».
ثم جعلت تولول وتقذف معلمي بالسباب والشتائم، حتى أثارت الاضطراب والخوف فيه. وأخيراً، أوقفتنا عن متابعة الحفل. لم يحزن معلمي للمشاجرة لأنه كان قد حصل على النقود، فأجّل ما بقي من العرض إلى يوم آخر وفي مشفى آخر. وراح الناس يلعنون العجوز، مضيفين إليها لقب الساحرة العجوز والمسترجلة أيضاً.

بالرغم من ذلك، بِتنا ليلتنا تلك في المشفى. وإذ لقيتني العجوز وحيداً في الفناء، قالت لي: «ألست ابن مونتييل؟ ألست هو يا بني؟» رفعت رأسي ونظرت إليها ببطء شديد. لما رأت ذلك مني، جاءت إليّ وعيناها تترقرقان بالدمع، وألقت ذراعيها على عنقي. ولو تركتها لقبلتني في فمي. لكنني تقززّت منها و لم أرضَ بذلك.

ثيبيون: أحسنت صنعاً! لأن تقبيل امرأة عجوز أو قبلتها هي، ليس متعة وإنما هو عذاب.

برغانثا: والآن، أريد أن أقص عليك ما كان يجب عليّ أن أقوله في بداية قصتي، وبذلك تزول دهشتنا التي أثارتها فينا قدرتنا على الكلام. فاعلم أن العجوز قالت لي: «اتبعني يا بني، وتعرّف إلى حجرتي، وحاول أن نلتقي فيها وحدنا هذه الليلة، لأنني سأترك الباب مفتوحاً. واعلم أن لديّ أشياء جمةّ أقصها عليك حول حياتك ولمصلحتك». طأطأت رأسي علامة الطاعة. وبهذه الحركة تحققتُ من أنني الكلب مونتييل الذي تبحث عنه، حسبما زعمت فيما بعد. أصبتُ بالذهول والاضطراب، ورحت أنتظر حلول الليل لأرى أين يكمن ذلك السرّ

والمعجزة التي حدثتني عنها العجوز. وإذ سمعت الناس يقولون عنها ساحرة، كنت أنتظر من لقائي بها وحديثها أشياء عظيمة. حانت أخيراً، لحظة اللقاء في حجرتها. وهي حجرة مظلمة ضيقة وواطئة يضيئها ضوء ضعيف يبثه سراج فخاري. قوّت العجوز من الإضاءة، وجلست على كرسي وقرّبتني منها دون أن تنبس بكلمة؛ وعادت تعانقني، وحرصت ألا تقبلني، أول ما قالته لي: «كان أملي كبيراً، يا بني، أن أعثر عليك قبل أن يغمض الموت جفوني. أما وإني رأيتك، فليأت الموت ويأخذني من هذه الحياة المتعبة. اعلم أن أعظم ساحرة عرفتها الدنيا عاشت في هذه البلدة. كانت تدعى / لاكاماتشا ديمونتيا /. كانت متفردة في صنعتها. فلا الساحرات ايريتو، أو سيريس، أو ميديا[٢٥] ممن امتلأت بهن كتب التاريخ، يضاهينها في شيء؛ كانت تجعل السحب تتجمد في السماء حين تريد، مغطيّة بذلك وجه الشمس، وإذا شاءت جعلت السماء المدلهمّة صافية، كذلك كانت تأتي بالرجال من أراض بعيدة في مثل ردّ الطرف، وتدبّر بشكل مدهش الفتيات اللاتي فقدنً بكارتهن بسبب عبثهن. كانت تغطي على الأرامل فيبدون شريفات، وهن غير شريفات، وتنزع المتزوجات من أزواجهن، وتزوج من تشاء منهن؛ في شهر كانون الأول كانت تقطف زهوراً غضّة من حديقتها، وتحصد قمحاً في كانون الثاني. وكانت تجعل نبات قرّة العين ينبت في العجين بسهولة بالغة؛ أو تعكس في مرآة أو ظفر طفل، الأحياء والأموات الذين يُطلب إليها أن تعرضهم. وكان لها شهرة بأنها تحوّل البشر إلى دواب، وقيل أنها استخدمت خادم كنيسة ستة أعوام وهو بهيئة حمار حقيقي

---

٢٥ – حسب الميثيولوجيا الإغريقية هي الساحرة التي أرشدت جاسون إلى بلد الجزز الذهبية وتزوجته. لكنها انتقمت منه لمّا مال إلى امرأة أخرى، فأحرقت القصر وقتلت أولادها منه، وفرّت. (المترجم).

واقعي. وهذا أمر لم أتوصل إلى معرفة صنعه أبداً. أمّا تلك الساحرات القديمات اللاتي كنّ يحوّلن الرجال إلى دواب، فيقول أهل العلم أن ذلك لم يكن شيئاً آخر غير اجتذابهن الرجال إليهن بجمالهن الفائق، وألهياتهن، فيغرم بهن هؤلاء جداً، ويخضعون لإرادتهن فيستخدمنهم في كل ما يرغبن فيه، يبدون رجالاً كالبهائم. أمّا بشأنك أنت، فقد بيّنت لي التجربة نقيض ذلك: فأنا أعلم أنك شخص عاقل، وإنْ كنت أراك بهيئة كلب. وقد صُنع بك هذا الصنع بواسطة ذاك العلم الذي يُسمى مَسخاً. وهو علم يجعل شيئاً معيناً يبدو شيئاً آخر. أيا يكن الأمر، لا أنا ولا والدتك، بلغنا شأوَ لاكاماتشا، وإن كنا تلميذتيها، لا لنقصٍ في ذكائنا، ولا مهارتنا؛ ولا لضعف في همّتنا التي كانت تفيض عنا. وإنما لإفراطها هي في الخبث؛ فلم تشأ أن تعلمّنا شيئاً من الأمور العظمى، لأنها كانت تحتفظ بها لنفسها. أمك يا بني، تدعى / لامونتييلا /؛ وهي تلي لاكامتشا في الشهرة. أنا أدعى كانيارث. إني، وإن لم أكن بمستوى الاثنتين، فلم تكن تنقصني الرغبات الموجودة لدى أي منهما. حقاً إن كاماتشا نفسها لم يكن لها همةُ أمك في العمل لتدخل حلقة وتحتبس مع فرقة من الشياطين. أما أنا، فكنت أعاني قليلاً من الخوف دائماً؛ لذلك، كنت أكتفي بنصف فرقة منها.

لكنني، وأقولها بتواضع، لا أرى لأيّ منهما، أو لمن يتبع علمنا ويحفظه، فضلاً عليّ في مسألة الدهون التي نَدّهن بها، نحن الساحرات. أعلم يا بني، لما رأيت الحياة، وأراها تنقضي وتمضي محمولة على أجنحة الزمن الخفيفة، رغبت في أن أتخلّى عن جميع نقائص السحر التي انغمست فيها سنين طوالاً. غير أنّ فضول الساحرة ظل ملازما لي؛ وهو عيب يصعب التخلص منه. أمك فعلت الشيء ذاته؛ فتبرأت من كثير من

العيوب، وقامت بكثير من أعمال البر. لكنها ماتت في النهاية ساحرة. و لم تمت بالمرض أبداً، وإنما ألماً وقهراً، لما علمت أن لاكاماتشا، معلمتها حسدتها بسبب شكوك ساورتها في أن أمك صارت تعلم علمها؛ أو بسبب مشادّة أثارتها غيرة لم أستطع التحقق منها. كانت أمك حاملاً؛ ولما جاءها المخاض، كانت لاكاماتشا قابلتها. تلقت هذه بين يديها ما وضعته أمك؛ وأرتها أنها وضعت جروَيْن، وقالت: «إن وراء هذا العمل شراً! وراءه خسّة! لكنني صديقتك، يا أخت مونتييلا. أنا سأغطي على هذه الولادة. وانتظري إلى أن تبرئي. واعلمي أن مصيبتك ستبقى مدفونة في أكفان الصمت؛ ولا يحزنك هذا الأمر في شيء، واعلمي أنني أستطيع أن أعرف إن كان هذا الوضع من علاقتك برودريغيث، صديقك الغندور، أم من شخص آخر كنت ترافقينه منذ فترة. ولادة الكلبين هذه، أتت من جهة أخرى، وتنطوي على سر!». ذهلت أمك كما ذهلت أنا، التي كنت شاهدة على الحدث العجيب. انطلقت لاكاماتشا حاملة الجروين، ومكثت مع أمك لمساعدتها والترفيه عنها، إذ لم تستطع المسكينة أن تصدّق ما جرى، لكن لاكاماتشا، لما شعرت بدنو أجلها، طلبتها وقالت لها أنها هي التي مسخت ابنيها كلبين، بسبب حقد تكنّه عليها. لكن، لا ينبغي لها أن تحزن، لأنهما سيعودان سيرتهما الأولى ما أهملت التفكير فيهما. لكنّ ذلك لن يحدث حتى يريا بأم عينيهما ما يلي:

«سيعودان إلى شكلهما الحقيقي
حين يريان في لحظة خاطفة
يداً قوية
تهوي بالجبابرة الطغاة
وترفع البسطاء المسحوقين».

سجّلت ذلك أمك كتابة وفي ذاكرتها. وكذلك فعلتُ، لأنبئكما بالحقيقة إن سمح الزمان بذلك. ولأستطيع تمييزكما من الكلاب الأخرى التي لها لونكما فأناديكما باسم أمكما، ليس ظناً مني أن على الكلاب أن تعرف الأسماء؛ وإنما إن كنتما تجيبان عند دعوتكما بشكل مختلف جداً عن الكلاب الأخرى حين تُنادى بأسمائها. ولما رأيتك هذا المساء تقوم بأشياء عجيبة وتُسمى باسم (الكلب العالم)، وترفع رأسك أيضاً لتنظر إليّ لما دعوتك في الباحة، ظننتُ أنك ابن لامونتييلا التي يسرني جداً أن أنقل لك أخبارها، وأُعلمك بالوسيلة التي تستعيد بها شكلك الأول، وآمل أن تكون بسهولة الوسيلة التي حكيت عن أبوليو في الحمار الذهبي: وكانت في أن يأكل الحمار وردة معينة فقط. لكن وسيلتك قائمة على حدوث أمور غريبة، ولا تستند إلى خفتّك ومهارتك. وما عليك، يا بني، إلا أن تستسلم لمشيئة الله؛ وانتظر أموراً، لا أريد أن اسميها نبوءات، وإنما توقعات، لابد من أن تحدث عاجلاً وبشكل مُرضٍ. فمادامت لاكاماتشا قالتها، فسوف تحدث، دون ريب؛ وستلقيان، أنت وأخوك إن كان لا يزال حيّاً، ما يرضيكما. إلّا أنّ ما يحزنني هو أن نهايتي أمست قريبة، ولن يكون لديّ فسحة لأرى ذلك. رغبت مرات عدة في أن أسأل شيطاني ماذا ستكون نهاية أمركما؛ لكنني لم أجرؤ. لأننا إذا سألناه، لا يجيب بصراحة أبداً. وإنما بكلمات ملتوية تحمل معاني شتى. وعلى هذا، لا ينبغي لنا أن نسأل معلمنا وسيدنا أي شيء، لأنه يمزج بحقيقة واحدة ألف أكذوبة. واستنتجت بأنه لا يعلم شيئاً مؤكداً مما يأتي به الغد، وإنما يعرفه تخميناً. ومع ذلك هو يخدعنا - نحن الساحرات - ويسخر منا ألف سخرية؛ ورغم ذلك، لا نستطيع الإفلات منه. نسعى للقائه بعيداً جداً عن هنا، في حقل كبير حيث تجتمع أعداد لا تحصى من السحرة،

نساءً ورجالاً. ويُقدّم إلينا الطعام دون حساب، وتجري أمور أخرى، في الحقيقة، لا أجرؤ أن أقصها، لأنها دنسة ومقززة، ولا أريد أن ألطخ أذنيك الطاهرتين بها. هناك رأي يقول إننا لا نحضر تلك المآدب إلا على أجنحة الخيال، فيمثل لنا الشيطان صور تلك الأشياء التي نزعم بعدئذ أنها حدثت لنا. وبعضهم الآخر ينفي ذلك، ويؤكد أننا نحضرها بالجسم والروح حقاً. وأنا أرى أنها حقيقة، ما دمنا لا نعلم متى ننتقل من هذه الحالة إلى تلك. لأن ما يجري لنا في الخيال شديد جداً حتى لا ينبغي التفريق بينه وبين ما نراه حقيقة وواقعاً. بعض التجارب قام بها قضاة محاكم التفتيش على بعض ممن وقعن في أسرهم. وأحسب أنهم لمسوا صدق ما أقول.

أردت يا بني أن أجنّبك هذه الخطيئة، فبذلت من أجل ذلك مساعيّ. وصرت راعية مشفى، أداوي الفقراء، ويمدني الموتى بما يقيني على قيد الحياة، ذلك بما يوصون به إليّ، وبما يبقى في أسمالهم التي أحرص على تفتيشها تفتيشاً دقيقاً. أصلّي قليلاً وعلناً؛ وأنمّ كثيراً وسراً. فخير لي أن أكون مرائية من أن أجاهر بالإثم. ظاهرُ أعمالي الحسنة الحاضرة تمحو من ذاكرة الذين يعرفونني، سوء أعمالي الماضية. في الواقع، القداسة المصطنعة لا تضر إلا بصاحبها. إليكَ هذه النصيحة يا ابن مونتييل: كن صالحاً ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وإذا اضطررتَ إلى فعل الشر، فاحرص ألا تجهر به ما استطعت. ساحرة أنا، ولا أنفي ذلك. وساحرة أمك، ونفّاثة في العقد كانت؛ ولا أنكر هذا أيضاً. لكن المظاهر الحسنة كانت تضفي علينا كلينا مظهر صدق في نظر الناس جميعاً. وقبل ثلاثة أيام من موتها، حضرنا مأدبة كبرى في أحد أودية البيرنيه. ومع ذلك، لما ماتت، أبدت سكينة وارتياحاً؛ ولولا بعض الحركات التي قامت بها

قبيل أن تسلم الروح، لبدت أنها ليست في سرير الموت، وإنما ترقد على سرير عرس مصنوع من الورود. كان قلبها يعتصره الألم. هكذا كانت أمك: كاملة وصلبة في أمورها. أنا أطبقت جفنيها بيدي وسرت في جنازتها حتى القبر. وودعتها هناك الوداع الأخير، وإن كان يراودني الأمل بأن أراها قبل أن أموت. فقد قيل أن بعض الناس رآها تسير في المقبرة، وعند مفارق الطرق تحت أشكال شتى. ولعلي ألتقي بها ذات مرة فأسألها إن كانت توصي بشيء من أجل راحة ضميرها.

كل ما قالته العجوز إطراءً لما زعمت أنه أمي، كان طعنة تخترق فؤادي. ورغبت في أن أهجم عليها وأمزقها إرباً إرباً بين أسناني. وإذ كففت يدي عنها، فكيلا يأخذها الموت وهي في حالة رديئة. قالت لي أخيراً، إنها تفكر في أن تدّهِن تلك الليلة لتحضر مأدبة من مآدبها المألوفة. ومتى تصبح هناك، تسأل سيدها شيئاً عما قد يحدث لي. رغبت في أن أسألها أية زيوت تدّهن بها؛ ويبدو أنها قرأت قصدي، فأجابتني عما أحدث به نفسي: «هذا الزيت الذي تدّهن به الساحرات، مكوّن من عصارة أعشاب باردة للغاية، وليس كما يزعم العامة، من دم الأطفال الذين نخنقهم. وهنا تستطيع أن تسألني ما البهجة التي يشعر بها الشيطان بأن يجعلنا نقتل كائنات غضّة؟ فهو يعلم أنها بتعميدها، وبراءتها وخلوّها من الخطيئة، تصعد إلى السماء. وهو يتلقى عذاباً منكراً لقاء كل روح مسيحية تفلت منه. وعلى هذا لا أستطيع أن أجيبك بشيء إلا ما يقوله المثل: «يفقأ عينيه، لأن عدوه فقأ عيناً واحدة»». فالكرب الذي يسببه للآباء هلاك أبنائهم، يكون العذاب الواقع عليه أشد ما يمكن تخيله. جلّ همه أن يجعلنا نرتكب هذا الإثم الكبير الفاحش في كلّ خطوة نخطوها. وكل ذلك يتم بمشيئة الله، بسبب من خطايانا. ولولا

مشيئته، لما استطاع الشيطان – كما بينت التجربة – أن يؤذي نملة. ولقد تحققت من صحة ذلك، لما رجوته، ذات مرة، أن يسحق حياة عدو من أعدائي، فأجابني بأنه لا يستطيع أن يلمس شعرة منها، لأن الله لا يريد ذلك. ومن هنا، يمكنك أن تدرك، حين تعود رجلاً، أن كلّ المصائب التي تحل بالناس والممالك والمدن والشعوب: كالموت الفجائي، والغرق والسقوط، وأخيراً كل المصائب التي نسميها ضرراً، تردُ من لُدن العليّ القدير وبإرادته المشيئة. أما الأضرار أو الشرور التي نسميها ذنوباً فهي من صنع أنفسنا. الله لا يخطئ؛ ومن هنا، نستنتج أننا نحن نقترف الذنب، ونصنعه في النية والكلمة والفعل. ولقد تقول الآن، يا بُني، إن كنت تفهمني: من جعل مني لاهوتية؟ ربما قلت: «شيء فلان في العاهرة العجوز: لماذا لا تتخلى عن السحر إن كانت تعرف هذه المعرفة، ولا تنيب إلى الله مادامت تعلم أنه غافر الذنب، ولا يقبل به؟» وعلى ذلك أجيبك: «إن عادة فعل السوء تصبح طبيعة فينا؛ وحب السحر يصبح لحماً ودماً لنا. وهو في أوج توهجه، (ويحدث ذلك كثيراً) يجعل الروح باردة، فتكلّ وتعمى عن الايمان. ومن هنا تنسى ذاتها؛ ولا تعود تتذكر الوعيد الذي يتهددها به الله، ولا النعيم الذي يعدها به. في الواقع، السحر خطيئة الجسد، وباعث على اللذّات، فلا مفر من أن يُخْمِدَ جميع الحواس ويخدّرها ويذهلها، ولا يدعها تفيد من قواها كما ينبغي لها. وهكذا، تصبح الروح مُعطّلة ضعيفة، واهنة؛ ولا تستطيع الارتفاع بعين البصيرة لتحصل على تفكير سليم. وهي، إذ تغرق في حضيض بؤسها، لا تريد أن تمدّ يدها إلى الله الذي وهبها إياها رحمة منه.

روحي من تلك الأرواح التي وصفتها لك. فأنا أرى كل شيء

وأفهمه. لكن حب اللذة يقيم سداً بيني وبين الإرادة. فكنت وسأكون شريرة دائماً. لكن، لندع هذا ولنعُدْ إلى مسألة الدهون فأقول إنها باردة جداً، حتى تنعدم حواسُّنا حين ندَّهن بها، ونظل مستلقيات عاريات على الأرض. حينئذ يقال إنّنا نصل بالخيال، إلى كل ما يبدو لنا أننا ننعم به في الواقع. بعد أن ننتهي من الادّهان، نغيّر أحياناً شكلنا، أو هكذا يُخيل إلينا، ونتحول إلى ديكة وبومات أو غربان، ونسعى إلى حيث ينتظرنا كبيرنا، وهناك نستعيد شكلنا الأول، ونتمتع بملذات أمتنع عن ذكرها. وهي لفُحشها تخجل الذاكرة من أن تتذكرها، ويفرّ اللسان من سردها. ومع ذلك، أنا ساحرة، وأغطي كل ذنوبي برداء الرياء. حقاً، إذا كان بعض الناس يعدّني وينظر إليّ على أنني صالحة، فلا أعدم من يذكّرني – دون عجيج – باسم تلك الحفلات التي أنزلها بنا غضب قاضٍ زمّيت كان له شأن في الأيام الخوالي، معي ومع أمك: فأسلمنا إلى يد جلّاد لم نرشِه، فصب جامّ غضبه وقسوته على متنينا. لكن ذلك الأمر مضى؛ وكل الأشياء تمضي والذكريات تنضب، والحياة لا تعود؛ والألسنة تعيا، والأحداث الجديدة تُنسي القديمة منها. أنا ربّة مشفى، وأقدم براهين جديدة على حسن عملي. والدهون تمنحني لحظات من السعادة. بلغت من الهرم مبلغاً حتى لا أحتمل الحياة سنة أخرى؛ فأنا في الخامسة والسبعين. لأنني لا أستطيع الصوم بسبب السنّ، ولا الصلاة لاضطراب حواسي؛ ولا الحج إلى المقامات المقدسة لضعف ركبتي؛ ولا الإحسان لفقري؛ ولا التفكير بالخير لأنني محبّة للنميمة. فإذا كان فرضاً عليّ أن أقوم بكل ذلك، فمن اللازم التفكير فيه أولاً. إذاً، لا بدّ من أن تكون أفكاري شريرة دائماً. ومع ذلك، أعلم أن الله برّ رحيم. وهو وحده يعرف ما هو مصيري. وكفى! ولنقف هنا بهذه المحادثة التي غمتني حقاً؛ تعالَ يا بني، وانظر كيف أدّهن. فكل الآلام بوجود

الخبز تهون. واليوم الصالح أدخلْه بيتك. واضحك تضحك لك الدنيا. أعني، لئن كانت الملذّات التي يمنحنيها الشيطان تبدو ظاهرية زائفة، فهي تبدو لنا ملذات. لأن اللذة المتخيلة أكبر كثيراً من التي نتذوّقها. وإن كان يجب أن يكون العكس في اللذات الواقعية».

ثم نهضتُ بعد أن ألقت هذه الخطبة الطويلة: تناولت السراج ودخلت حُجيرة أشدّ ضيقاً من الأولى. تبعتها وأنا أصطرع بمختلف الأفكار، ودَهِش مما سمعته، ومما أترقب أن أراه. علّقت لاكانياريث السراج على الحائط، وأخرجت من إحدى الزوايا قِـدْراً زجاجياً، وغمست يدها فيه وتمتمت من بين أسنانها، وراحت تَدّهن من أخمص قدميها حتى رأسها. وقبل أن تفرغ من الادّهان، قالت لي: «سواء ظلّ جسمي في هذه الحجيرة هامداً دون إحساس، أو اختفى منها فلا تجزع، ولا تتخلّ عن الانتظار حتى الصباح، لأنني قد آتيك بأخبار تبيّن متى تعود بشراً». قلت لها مطأطئاً رأسي إني سأفعل. حينئذ، انتهت من دهن جسمها وتمدّدت على الأرض كالميتة. قرّبت فمي من فمها، ولاحظت أنها لا تتنفس قليلاً أو كثيراً. وأريد أن أعترف لك بحقيقة يا سيد ثيبيون: أحسست بخوف كبير لمّا رأيت نفسي محتبساً في تلك الحجرة الضيقة مع جثمان تلك المرأة المسجّاة أمامي التي سأصفها لك بأحسن ما أعرف. كان طولها يزيد على سبعة أقدام؛ كانت كتلة من العظام مغطاة بجلد أسود أشعر مدبوغ، كرشها كان يشبه جلد شاة، ويغطّي عورتها ويصل حتى منتصف فخذيها؛ حلمتا ثدييها كانتا تشبهان مثانة بقرة جافة ومتجعدة. وكانت شفتاها سوداوين، وأسنانها مطبقة على بعضها؛ كان أنفها أعقف مسطحاً، وعيناها جاحظتين، وشعرها أشعثَ، ووجنتاها جافتين؛ حلقُها كان كبيراً، وثدياها ذاويين. أخيراً، كانت غاية في النحول والتشوّه. رحت

أنظر إليها ببطء، وسرعان ما استولى عليّ الخوف متفكراً في منظر جسمها الكريه، ومشاغلها الروحية الرديئة. أردت أن أعضها لأرى إن كان يعود إليها الوعي، فلم أجد موضعاً في جسمها إلا وأثار التقزّز فيّ. لكنني، بالرغم من ذلك، أمسكت بها من عقبها وجررتها إلى الفناء، ومع ذلك، لم تبدِ علامات على أنها أحست بشيء. زال الخوف عني لما نظرت إلى السماء، ووجدتني في مكان فسيح، أو على الأقلّ خفَّ عني حتى واتتني الشجاعة بأن أنتظر لأرى أين ستؤول مساعي تلك المرأة السيّئة، وينتهي ما كانت تقصّ علي من أحداث حياتي. وهنا كنت أسأل نفسي من هذه المرأة على هذا القدر من الحكمة والسوء؟ أنّى لها معرفة أيّ الأخطاء لَمِم، وأيها آثام؟ كيف تفهم، وتتحدث عن الله، وتعمل عمل الشيطان؟ كيف تذنب بخبث شديد ولا تعتذر عن ذلك بالجهل؟ قضيت الليل بهذه الهواجس، وطلع النهار، ونحن الاثنان مانزال في وسط الفناء: هي غائبة عن وعيها، وأنا مُقع إلى جانبها ناظراً إلى وجهها القبيح المخيف. هُرع نزلاء المشفى. وعند رؤيتهم هذا المنظر، قال بعضهم: «لقد ماتت لاكانياريث الطاهرة. انظروا كيف جعلتها التوبة نحيلة عجفاء!» بعضهم الآخر كان أكثر تعقلاً، فجسّ نبضها، ووجد أن عرقها ما زال ينبض، وبالتالي ليست ميتة. ومن هنا، أوحوا أنها في حالة «مشاهدة»، وخارجة عن ذاتها ببساطة. وفريق ثالث قال: «هذه العجوز القحبة، لا شك في أنها ساحرة ادّهنت، لأن القديسين لا يقومون بهذه الانسلاخات المقوتة، وقد اشتهرت عند الناس بأنها ساحرة وليست قديسة». بعض الفضوليين غرزوا دبابيس في جسمها، بدءاً بقدميها وانتهاءً برأسها، فلم تستجب لها. و لم تستعد وعيها حتى الساعة السابعة. ولما رأت الدبابيس مغروزة في لحمها، وعقبها معضوضاً، وجسمها مسحولاً من الجر؛ ورأت كل هذه العيون تنظر إليها، ظنت – وكان ظنها حقاً – أنني المسبّب في فضيحتها. وهكذا انقضّت

علي، مطبقة بكلتا يديها على حلقي محاولة خنقي، وقالت: «أيها الخسيس التعس، والجاهل الخبيث: أهذا جزائي على الأعمال الصالحة التي قمت بها من أجل أمك، وأفكر أن أقوم بها من أجلك؟!» ولمّا وجدت نفسي في خطر بأن أفقد حياتي بين مخالب ذلك الوحش الضاري، انتفضت وأمسكت بها من عُكن بطنها المتهدّلة، وجررتها عبر الفناء فأخذت تطلق الأصوات لتحريرها من بين أنياب تلك الروح الخبيثة.

بأقوال العجوز اللعينة هذه، ظن معظم الناس أني لا بد من أكون أحد الشياطين الذين يحقدون دائماً على المؤمنين. فأخذ بعضهم يُلقي علي ماء مقدساً، وبعضهم الآخر لم يجرؤ على أن يفارقني. كانوا يصيحون معزّمين، وكانت العجوز تجأر، وأنا كنت أشدُّ على نواجذي. وزاد الاضطراب، وجاءت الضوضاء بمعلمي الذي شعر بالإحباط لمّا سمعهم يقولون عني إني شيطان. لكن رجالاً آخرين لا يؤمنون بالعزائم والرُّقى، هرعوا إلى ثلاث أو أربع عصي انهالوا بها على متني: فساءتني المهزلة وأفلتُّ العجوز. وبثلاث خطوات صرت في الشارع. وبخطوات أخرى قليلة صرت خارج المدينة يتبعني عدد لا يُحصى من الصبيان الذين كانوا يجرون صائحين بأصوات عالية: «ابتعدوا عن الكلب المسعور العالم»، وبعضهم كان يقول: «ليس مسعوراً، وإنما هو شيطان بصورة كلب». بهذا الانسحاق والجرْسة الكبرى، خرجت من الحي، يطاردني خلق كبير يعتقدون اعتقاداً جازماً أني شيطان سواء بالأعمال التي رأوني أقوم بها، أم بالكلمات التي كانت تتفوّه بها العجوز لما أفاقت من رقدتها اللعينة. فأسرعت إلى الفرار منهم، والابتعاد عن أنظارهم، فظنوا أني اختفيت كما يختفي الشيطان؛ وخلال ست ساعات قطعت اثني عشر فرسخاً، وبلغت مخيم غجر مقاماً وسط حقل قرب غرناطة. هناك استعدت شيئاً من قواي،

لأن بعض الغجر عرفني على أني الكلب العالم، وتلقوني بسرور كبير، وأخفوني في غار، كيلا يُعثر علي إذا بُحث عني. وكانت نيتهم أن يكسبوا من ورائي كما كان يفعل معلمي قارع الطبل. مكثت معهم عشرين يوماً عرفت خلالها حياتهم وعاداتهم، وهي لأهميتها لا أجد بدّاً من سردها.

ثيبيون: قبل أن تمضي في قصتك إلى الأمام يا برغانثا، يحسن بنا أن نُلقي نظرة على ما قالته الساحرة، ونتحقّق إن كانت حقيقة تلك الكذبة التي صدقتها أنت. انظر، يا برغانثا، من الحمق الكبير أن نصدق أن لاكاماتشا تحول الرجال إلى بهائم. أو أن راعي كنيسة خدمها بهيئة حمار تلك السنين التي زعمتها. كل هذه الأشياء وأشباهها دجل وأكاذيب، وتظاهرة من تظاهرات الشيطان، وإذا بدا لنا أننا نمتلك قليلاً من الفهم والعقل، لأننا نتكلم حقاً، وإن كنا كلبين أو بصورة كلبين، فقد سبق أن قلنا إنّ هذا أمر معجز، ولم يُرَ مثله أبداً. نحن وإن لمسناه لمس اليد، فلا ينبغي لنا أن نعده حقيقة حتى يتبيّن لنا أن حدوثه جدير بالتصديق. أتريد مزيداً من الوضوح؟ تأمل الأمور التافهة، والآراء السخيفة التي زعمت لاكاماتشا أن عودتنا منوطة بها. فما بدا لك نبوءات ما هو إلا كلمات خادمات، أو حكايات عجائز، مثلها مثل قصة الحصان دون رأس، وعصا الفضائل الصغيرة. حكايات للتسلية والترفيه تُحكى عند المدفأة في ليالي الشتاء الطويلة. ولو كانت تلك النبوءات شيئاً آخر لتمّت وتحققت. وإنما يجب أخذ كلماتها بمعنى سمعتهم يدعونه مجازياً. وهو يعني أن الكلمات لا تُفهم بمعناها الحرفي، وإنما بشيء آخر مختلف، تقوم بينه وبينها صلة مشابهة. وهذا قولها:

سيعودان إلى شكلهما الحقيقي

حين يرون بسرعة خاطفة

يداً قادرة

تهوي بالجبابرة الطغاة

وترفع البسطاء المسحوقين.

إذا أخذنا الأشعار بالمعنى الذي ذكرت، يبدو أننا سنستعيد شكلنا الآدمي حين نرى اليوم أولئك الذين كانوا بالأمس يتربّعون على قمة دولاب الحظ، مذلولين، مهانين يترددون في وهدة التعاسة ويزدريهم من كان يُجلّهم من قَبلُ إجلالاً كبيراً. وكذلك حين نرى آخرين، لم يكونوا حتى الأمس القريب غير أعداد تضاف إلى غمار الناس، قد تسنّموا قمة السعادة حتى لا يدركهم بصرنا؛ وإذا كانوا في السابق لا يظهرون لقماءتهم وضآلة شأنهم، فإننا لا نستطيع اليوم إدراكهم لعظم شأنهم وأهميتهم. فإذا كانت عودتنا إلى الشكل الذي تزعمه رهن هذه الإشارات، فلطالما رأيناها ونرى مثلها في كل خطوة نخطوها: وهذا ما يدفعني إلى الظنّ أن أشعار لاكاماتشا يجب أن تؤخذ بالمعنى الحرفي وليس بمعنى مجازي. ولا في هذا المعنى يكمن علاجنا. فقد رأينا كثيراً ممّا تزعمه هذه الأشعار، وها نحن أولاء ما زلنا، كما ترى، كلبين حقيقيين. إذاً، لاكاماتشا كانت هزأة مزيفة، وكانياريث كاذبة، ومونتيبيلا غبية، خبيثة وخسيسة، مع الاعتذار إن كانت أمنا كلينا، أم أمك وحدك، فأنا لا أريدها أن تكون أمّاً لي. أقول إذاً، إن المعنى الحقيقي لعبة بولو تسقط فيها بمهارة وحذق العصي القائمة، ويُعاد نصب المتساقطة منها. وهذا بمُستطاع كل لاعب يعرف اللعب أن يفعله. فانظر إن كنا قد رأينا في حياتنا لعبة بولو، وهل عُدنا بسبب ذلك إلى وضعنا البشري، إن كنا بشراً حقاً.

برغانثا: أنت على حق، أخي ثيبيون، وأنت أكثر حكمة مما كنت أحسب، ما قلته جعلني أفكر وأعتقد أن كلّ ما جرى لنا وما يجري

حتى هذه الساعة، حلم، وأننا كلبان. لكنّ ذلك لن يجعلنا نتخلّى عن التمتع بنعمة الكلام، ولا عن الامتياز الكبير بالتحدّث كبني البشر، قدر ما نستطيع. وعلى هذا، لا تسأم من سماع ما جرى لي مع الغجر الذين خبّؤوني في الغار.

ثيبيون: أسمعك برغبة صادقة لأُرغمك على الاستماع إليّ حين أقص عليك سيرتي، إن شاء الله.

برغانثا: حياتي مع الغجر أفادتني في الاطلاع على خبائثهم الكبيرة، وحيلهم، وأكاذيبهم؛ وعلى السرقات التي كانوا يرتكبونها نساء ورجالاً منذ خروجهم من القماط ودروجهم على وجه الأرض. أترى جموعهم المتفرقة في أرجاء إسبانيا؟ إنهم يعرفون بعضهم البعض جميعاً، ويتناقلون الأخبار فيما بينهم؛ ويقترفون السرقات، ويتبادلون المسروقات. يدينون بالطاعة لرجل منهم يدعى / كَونْده / أكثر مما يطيعون الملك. هذا الرجل وكل ذريته، يحمل لقب / مالدونادو /. لا لأنهم ينحدرون من هذا النسب الرفيع، وإنما لأنّ وصيف أحد الفرسان كان يُدعى بهذا الاسم، فأحبّ غجرية لم تشأ أن تبادله الحب حتى يصير غجرياً، ويتخذها زوجاً له. قبِل الوصيف بذلك، وراق هذا الأمر الغجر الآخرين، فنصّبوه زعيماً عليهم، ورموا له عصا الطاعة. وعلامةُ خضوعهم له، أنّهم يوافونه بجانب هام ممّا يسرقونه. ينشغلون، لتزيين عطالتهم، بشغل الحديد. فيصنعون منه أدوات ليسهّلوا بذلك سرقاتهم، وهكذا تراهم دائماً يجوبون الشوارع ليبيعوا كماشات، ومثاقب وشواكيش. والنساء يبعن أثافيَّ وملاقط. كلّهن يعملن في القبالة، ويتفوّقن في هذا الفن على قابلاتنا. لأنهن يقبلن الحوامل دون كلف ولا مصاريف. ويغسلن المواليد بالماء البارد عند ولادتهم. الغجر، إذاً، منذ ولادتهم وحتى موتهم، يشدّ من بأسهم قسوة المناخ وظلم الطبيعة،

لذلك، تراهم جميعاً نشطاء وعيّارين وعدائين وراقصين. يتزاوجون فيما بينهم كيلا يطّلع أحد غيرهم على عاداتهم. والنساء لا يتبرّجن إلا لرجالهن. قليلات منهن يخنّهم إلا مع أبناء جنسهن. وحين يطلبن الصدقة، يحصلن عليها بالحيلة والشعبذة، وليس بالتقوى. لا يعملن في خدمة البيوت لانعدام الثقة بهن، فيتجهن إلى حياة الكسل والبطالة. لم أرَ غجرية واحدة تتناول القربان عند المذبح، لأنني كنت أتـردّد على الكنائس كثيراً. أفكارهم تنصرف إلى كيف يغشّون وأنّى يسرقون. أحاديثهم كلها تدور حول سرقاتهم والطرق التي يسلكونها من أجل هذه الغاية. وإليك ما قصّه غجري على غجري آخر، كيف سرق ذات يوم فلّاحاً بالخديعة. كان للغجري حمار ذو ذيل أجرد فوصله بهُلب مستعار فبدا وكأنه طبيعي. وذهب به إلى السوق. واشتراه منه فلاح بعشرة دوكادات. وبعد أن قبض ثمنه قال للفلاح إن كان يرغب في شراء حمار آخر نظير هذا الحمار في الجودة، لقاء ثمن مقبول. فأجابه الفلاح أن يوافيه به، ريثما يوصل الحمار الحاليّ إلى مسكنه. انطلق الفلاح وتبعه الغجري الذي استطاع بحيلة من الحيل أن يسرق الحمار منه؛ ونزع عنه الهُلْب المستعار، وبدّل بردعته ورسنه؛ وراح يبحث عن الفلاح ليبيعه الحمار. عثر عليه قبل أن يتفقّد هذا الأخير حماره الأول، وخلال لحظات باعه الحمار «الثاني». جاءا إلى البيت لدفع الثمن، فاكتشف الفلاح أن الحمار الثاني ما هو إلا الحمار الأول نفسه. شقّ ذلك عليه كثيراً، وارتاب في أن الغجري سرقه؛ وامتنع عن دفع الثمن. فجاء الغجري بشهود. وأحضر الذين قبضوا عمولة عن بيع الحمار الأول؛ وحلفوا أن الغجري باع الفلاح حماراً ذا ذنب طويل جداً، ومختلفاً عن الحمار الآخر. في تلك الأثناء حضر مأمور القضاء، وراز حجج الغجري فوجدها صحيحة. ولم يجد الفلاح مناصاً من دفع ثمن الحمار مرتين. كانوا يحكون عن سرقات أخرى كثيرة، كلها أو جلها تتعلق بالدواب، وهو مجال تفوّقوا فيه ومارسوه

طويلاً. باختصار: الغجر ناس دنيئون. وقد قام عدد من الحكام الحكماء بمكافحتهم، فلم ينفع ذلك في إصلاحهم.

بعد عشرين يوماً، أرادوا نقلي إلى مرسيّة فمررت بغرناطة مقر قائد الكتيبة التي كان معلمي يعمل فيها قارع طبل. لما علم الغجر بالأمر، حبسوني في إحدى غرف الخان الذي ينزلون فيه وسمعتهم يذكرون دواعي سفرهم، فلم أرَ فيه ما يلائمني؛ لذلك عزمت على أن أتحرر منهم. وفعلت.

غادرت غرناطة ودخلت بستاناً لأحد الموريسكيين[٢٦]، فاستقبلني

٢٦- موريسكوس: أطلقت على العرب المسلمين الذين ظلّلوا في إسبانيا بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢، وطردوا منها عام ١٦٠٩؛ أي بعد مائة وسبعة عشر عاماً.
كان شرط بقائهم أن يتحولوا إلى المسيحية.
قاموا بانتفاضات متكرّرة، أهمها ثورة ١٥٦٩ (بدأت في ١٥٦٨/١٢/٢٤)، وقد قُمعت كلها. أما سبب طردهم المُعلَن، فكان اتهامهم بأنهم يعلنون المسيحية ويبطنون الإسلام ويمارسون شعائرهم سراً. وقد يكون في ذلك جانب من الصدق.
غير أن السبب الحقيقي يعود إلى:
نفوذ محاكم التفتيش الطاغي، بعد الحروب الدينية، والرغبة في «النقاء المذهبي».
الخوف من انتفاضة جديدة.
وهو الأهم: مصادرة أموالهم، والاستيلاء على ممتلكاتهم، فلقد كانوا تجاراً بارعين، وصناعاً مهرة، وفلاحين نشيطين. كانت أحوال الإمبراطورية الإسبانية في تلك الأثناء، سيئة للغاية. فكان لا بد من كبش فداء، وكان هؤلاء العرب المسلمين.
والمرارة التي يشعر بها ثربانتس نحوهم تعود إلى سبب عام وآخر خاص. السبب العام ما ذكرناه سابقاً. والخاص هو أن ثربانتس جرحت ذراعه في معركة ليبانتو ضد العثمانيين، ومكث في أسر الجزائريين خمسة أعوام ونصف العام. فأسقط آلامه على الموريسكيين. ويرى القارئ أن القصة مقحمة في النص، ولا تضيئه أو تغنيه في شيء، وفيها أمور هي في الحقيقة مدح لهم. ما ذكره ثربانتس كان إرهاصاً بما حدث بعد أعوام من تاريخ كتابة قصة حديث كلبين، وليس نشرها. (المترجم).

استقبالاً حسناً جلب السرور إلى نفسي. وبدا لي أنه لا يبغي شيئاً مني إلا حراسة بستانه. وهو عمل بتقديري أقلّ عناء من حراسة القطعان. لم يكن لديّ مجال للمساومة على الأجر. فكان من السهل على الموريسكي أن يجد فيّ خادماً يأمره، وأجد أنا فيه سيداً أخدمه. ومكثت عنده مدة تنوف على الشهر، لا رغبة في العيش معه، وإنما تطلّعاً لمعرفة حياته؛ ومن خلالها، معرفة حياة الموريسكيين المقيمين في إسبانيا. أوه! كم من الأشياء يمكنني أن أقولها لك، يا صديقي ثيبيون، عن هؤلاء الموريسكيين الرعاع، لولا الخوف بألا أستطيع ختمها خلال أسبوعين! وإذا ملتُ فيها إلى التفصيل، فلن تنتهي في شهرين. لكن لا بد لي من أن أقول شيئاً. فاسمع إذاً، خلاصة ما رأيته ولاحظته، بخاصة، حول هؤلاء الناس؛ هي أعجوبة أن تجد بينهم من يؤمن حقاً بالعقيدة المسيحية. همّهم ينصرف إلى جمع المال وتكديسه وحفظه. وللحصول عليه يعملون ولا يأكلون. فما إن يدخل الريال في حوزتهم، حتى يُسجن سجناً مؤبداً، وفي ظلمة دائمة. بشكل ما، هم يكسبون دائماً ولا ينفقون شيئاً. تتجمع في أيديهم الكتلة العظمى من النقد الموجود في إسبانية. هم خزنة هذا البلد وعثُّه، وقوارضه وغربانه. يحصلون على كل شيء، ويكنزون كل شيء، ويبتلعون كل شيء. تفكّرْ أنهم كثرة، وأنهم يكسبون كل يوم ويخزنون قليلاً أو كثيراً، واذكر أن الحمّى البطيئة تقضي على الحياة كالحمّى الخبيثة. تزداد أعدادهم، وبالتالي يزداد عدد الخزنة الذين ينمون، ولا مفر من أن ينموا باستمرار، كما بينت التجربة. لا توجد بينهم عفّة، ولا يدرسون علوم الدين؛ يتزاوجون ويتكاثرون لأن حياة الكفاف تزيد من أسباب ازدياد النسل. لا تستنزفهم الحروب، ولا يرهقهم العمل بإفراط. يسرقوننا شيئاً فشيئاً. لأن علمهم الوحيد سرقتنا. من نسل أولاد يعقوب الاثني عشر الذين دخلوا مصر، خرج مع موسى من الأسر ستمائة ألف

رجل عدا الأطفال والنساء. ومن هنا، يمكن الاستنتاج أن أعداد هؤلاء الموريسكيين تتضاعف وهي، دون مقارنة، تربو على عدد أولئك.

ثيبيون: البحث جارٍ عن حلّ لهذه الأخطاء التي ذكرتها ووصفتها بقتامة. وإني أعلم جيداً أن ما سكتُّ عنه أعظم مما رويته حتى اليوم؛ و لم يعثر على ما ينبغي اتخاذه. لكن حكام بلدنا غيورون وحذرون للغاية، فإذا رأوا أن إسبانية ترعى وتحضن أراقم كالموريسكيين، فسيجدون بعون الله، مخرجاً مأموناً أو سريعاً لهذا الخطر المؤكد. تابع قصتك.

برغانثا: وإذْ كان معلمي رجلاً بائساً مثل أبناء جنسه كافة، فكان يقتات بخبز الدخن مخلوطاً بنفايات الذرة، وهو القوت المشترك لهم جميعاً. لكن هذا البؤس ساعدني على بلوغ المجد بطريقة غريبة جداً، ستسمعها بعد قليل. كل يوم، كنت أجد وقت الفجر شاباً يجلس عند أرومة رمانة من ذلك الشجر المنتشر في البستان. شكله يوحي بأنه طالب يلبس رداء صوفياً ليس شديد السواد، ولا كثير الوبر؛ فكان يبدو رمادياً أملس. كان الطالب ينكب على الكتابة في أوراق؛ ومن حين لآخر، كان يضرب بيده على جبهته وينظر إلى السماء. وأحياناً أخرى، كان يغرق في التفكير فلا يحرك قدماً ولا يداً ولا جفناً وكأنه ذاهل عما يجري حوله. دنوت منه، ذات مرة حتى صرت عنده دون أن يلحظني. سمعته يدمدم من بين أسنانه. وبعد برهة، صاح بصوت عالٍ: «الحمد لله! إنها أفضل قصيدة كتبتها في حياتي». وراح يكتب بسرعة في أوراقه مبدياً علامات سرور كبيرة. كل ذلك جعلني أدرك أن هذا الشقيّ شاعر. قمت بمداعباتي المألوفة لأطمئنه إلى وداعتي، وارتميت على قدميه، فاطمأنّ إلي، وتابع تفكيره، وحك رأسه، وعاد إلى ذهوله، ثم إلى كتابة ما فكر فيه. وبينا هو في ذلك،

دخل البستانَ شاب آخر أنيق الطلعة، يحمل أوراقاً في يده ويقرأ فيها من حين لآخر. ووصل إلى حيث يجلس الأول، وقال له: «أأنهيت الفصل الأول؟» وأجاب الشاعر: «ختمته لتوّي على أحسن ما يمكن تخيله». «على أي شكل؟» سأل الآخر. فأجاب الأول: «على هذا الشكل: يخرج قداسة البابا مرتدياً ملابس بابوية، يرافقه اثنا عشر كاردينالاً يلبسون جميعاً أردية بنفسجية. لأن الحالة التي تصفها مسرحيتي حدثت وقت تبديل الأردية. فلا يلبس الكرادلة حينئذ الملابس الحمر، وإنما البنفسجية. على كل حال، من الأفضل أن يخرج كرادلتي بالبنفسجي حفاظاً على الخصوصية. وهذه نقطة هامة جداً لموضوع المسرحية. لا شك في أن الممثلين سيعانون منها، ويقومون في كل خطوة بألف حماقة وارتباك. لا يمكن أن أكون قد أخطأت في هذا المجال، لأنني قرأت كل ما يتعلق بطقوس الكنيسة الرومانية لكي يحالفني الصواب في مسألة الملابس».وأجاب الآخر: «لكن، من أين تريد أن يحصل مخرجي على الملابس لإثني عشر كاردينالاً؟». «إذا أنقصت واحداً منهم - أجاب الشاعر - فسأعدّ مسرحيتي كأنما نُسفت. العمى! أينبغي لهذا المظهر العظيم أن يختفي؟ تصّور منذ الآن كيف سيكون ظهور الحبر الأعظم على المسرح، وكرادلته الإثنا عشر الوقورون؛ ووزراؤه الذين لا مفرّ من أن يكونوا في حاشيته. أرجو الله أن تكون أعظم وأرفع ما عرفه المسرح، ولا أستثني مسرحية: باقة ورد لدراخا». وهنا علمت أن الأول كان شاعراً والآخر ممثلاً. نصح الممثل الشاعر أن يستغني عن بعض الكرادلة إذا كان يرغب في أن لا يجعل عمل المخرج مستحيلاً. وردّاً على ذلك، قال الشاعر إنّ من واجبهم أن يشكروه، لأنه لم يضع مجلس الكرادلة كله في الفصل الخالد الذي زعم أنه سيصكّ به ذاكرة الناس في مسرحيته السعيدة.

ضحك الممثل وتركه في شغله، لينصرف هو إلى شغله، وكان دراسة دور له في مسرحية جديدة. لكن الشاعر، بعد أن كتب مقاطع من مسرحيته الرائعة، أخرج من جيبه بحرص كبير، وعلى مهل بعضاً من كسر الخبز وحوالي عشرين حبة زبيب، لأنني أحسب أنه عدّها، وإن كنت أشك في أن تكون كذلك. فقد كانت تختلط ببعض فتات الخبز. نفخ الفتات وأبعده، وراح يتناول حبات الزبيب واحدة واحدة و لم أره يلقي بواحدة منها، بل كان يُشركها بكسرات الخبز التي كانت تبدو بلون الزبيب، وكانت يابسة جداً، حاول أن يبللها وهو يلوكها مرة بعد الأخرى، لكنه لم يُفلح في جعلها لينة. كل ذلك تحول إلى نفع لي، لأنه ألقى بها إليّ قائلاً: «تو! تو! خذها. عساها تنفعك». قلت في نفسي: «انظروا إلى هذا الرحيق الذي أعطانيه الشاعر؛ وهو الغذاء الذي تقتات به ربّات السماء، وأبولو إله الشعر نفسه». أخيراً، رأيت أغلب الشعراء يعيشون في بؤس كبير. لكن حاجتي كانت أكبر من بؤسهم، لأنها كانت تضطرني إلى تناول ما تعافه نفس الشاعر. لم يتخلّف شاعرنا عن المجيء إلى البستان مادام يكتب المسرحية. وأنا لم تفتني كسر الخبز بحضوره. فكان يقاسمنيها بشهامة، ثم كنا نتجه إلى الساقية لنطفئ ظمأنا، كنت أتناول الماء منبطحاً، أما هو، فكان يحصل عليه من الدلو. لكن الشاعر اختفى فجأة، فازداد بغيابه جوعي حتى عزمتُ على ترك الموريسكي ودخول المدينة بحثاً عن مغامرة لا يُعثر عليها إلا بالارتحال. منذ دخولي المدينة لمحت شاعري خارجاً من دير سان خيرونيمو المشهور. لما رآني، اتجه صوبي فاتحاً ذراعيه؛ فهرعت إليه مبدياً علامات سرور جديد لأني وجدته، وما لبث حتى أخذ يُفرغ عليّ قطع خبزٍ أطرى من تلك التي كنت أتناولها في البستان، وكان يسلمها إلى أسناني دون الحاجة لتمر على أسنانه أولاً. وبفضلها

سددْت جوعي. قطع الخبز الطرية، ورؤيتي شاعري خارجاً من باب الدير، ألقت في روعي أن ربّات الشعر عنده خجولة - كما هي عند كثير غيره. اتخذ طريقه صوب المدينة، فتبعته عازماً على أن أتخذه سيداً لي إن رغب في ذلك، متخيلاً أنني من فضلات قصره، أستطيع أن أسد رمقي. فلا جيب أوسع ولا أفضل من جيب الإحسان. لأن أياديه الكريمة لا تنضب أبداً. لذلك لا أتفق اتفاقاً تاماً والمثل الذي يقول: « عطاء البخيل الكزّ خير من عطاء المحروم». وكأنّ الشحيح القاسي يعطي شيئاً كما يعطي الكريم الذي ضاقت ذاتُ يده. فهذا الأخير يسعدك، على كل حال، بحسن حديثه ما يغنيك عن ماله. وخطوة إثر خطوة وصلنا بيت مخرج المسرحية المدعو، كما أذكر، أنغولو ديمالو، تمييزاً له عن أنغولو آخر لم يكن مخرجاً، وإنما ممثل من أظرف ما عرفته المسارح يومئذ. اجتمعت الفرقة كلها للاستماع إلى مسرحية معلمي. وما إن وصل بإلقائها إلى منتصف الفصل الأول، حتى راح أعضاء الفرقة ينسحبون واحداً واحداً، ثم زوجين زوجين. ولم يبقَ أحد غيري أنا والمخرج نستمع. كانت المسرحية رديئة حتى بدت لي، رغم كوني حماراً في مسألة الشعر، أن الشيطان نفسه ألّفها.

كل ذلك كان لخراب الشاعر الذي راح يجرض بريقه وهو يرى الوحدة التي تركه بها الحضور. وليت الأمر اقتصر على ذلك، لأن المصيبة كانت تقف له بالمرصاد في الداخل، فما لبث الممثلون الذين تجاوز عددهم الإثني عشر، أن عادوا، وأمسكوا بتلابيب الشاعر دون أن ينبسوا بكلمة. ولولا سلطة المخرج، وتوسلاته ووقوفه حائلاً بينه وبينهم لقضوا عليه. خرجتُ من هذه القضية دَهشاً؛ والمخرج خائر النفس؛ والممثلون فرحين؛ والشاعر مسحوقاً. تناول الشاعر

متجهماً مسرحيته بأناة كبيرة واحتضنها، وهو يتمتم قائلاً: «لا تلقوا بالورود إلى الخنازير». وأنا على ضوء تجربتي، لم أستطع، ولم أرد أن أتبعه؛ وقد وُفّقتُ في ذلك؛ لأن المخرج ضاعف من مداعباته. فأرغمني على البقاء معه. وفي أقل من شهر، صرت ممثلاً كبيراً في تمثيليات الإنترميس[٢٧]. تعلمت تمثيل هزليات في دور أشخاص صامتين. ووُضع لي لجام من قماش؛ وتعلمت أن أهجم في المسرح على من يشاؤون الهجوم عليه. وإذا كانت تلك التمثيليات تنتهي، معظم الأحيان، بالاشتباك بالعصي، فكانت تمثيليات فرقتي تخيفني: كنت أحطّم كل شيء وأتعثّر بأي شيء مما يبعث على الضحك عند الجهلاء، ويجلب كثيراً من الربح لمعلمي. أوه يا ثيبيون! من يستطيع أن يقص عليك ما رأيته في هذه الفرقة، وفرقتين أخريين هزيلتين عملت فيهما؟ فإذا كنت لا أستطيع اختزال قصتي فيهما إلى حكاية صغيرة وذات مغزى، فسوف أؤجل قصّها إلى يوم آخر، إن وافانا يوم آخر نستطيع الاتصال فيه ببعضنا. أرأيت كم هو حديثي طويل؟ أرأيت كثرة الأحداث التي مررتُ بها واختلافها؟ أقدّرت كم من الطرقات قطعت، وكم من السادة خدمت؟ إذاً، كل ذلك لا يُعد شيئاً ذا بال قياساً لما يمكن أن أقصه عليك عما لاحظته وتحققت منه، ورأيته عند هؤلاء الناس؛ عن سلوكهم وحياتهم وعاداتهم وممارساتهم، وأعمالهم وكسلهم، وجهلهم وذكائهم وأشياء أخرى لا حصر لها، بعضها يقال هَمْساً، وبعضها جهراً أمام الجمهور. فبعضها للذكرى والعبرة، وإزالة الغشاوة عن عيون كثيرين مشغوفين بالصور المتخيلة والجمال المصنوع والمحوّر.

٢٧- انظر شرحها في «ثربانتس وعصره».

ثيبيون: إني ألمح المجال الطويل الذي عرضت عليه لإطالة حديثك. ويبدو لي أنك ستدعه لتجعل منه قصة على حدة، وفي وقت هادئ يخلو من القلق.

برغانثا: ليكنْ ذلك، استمع. وصلت مع إحدى الفرق إلى بلد الوليد. فجُرحت في إحدى التمثيليات جرحاً بليغاً ترك فيّ أثراً لا يزول حتى نهاية عمري. لم أستطع الانتقام لأنني كنت مُلجماً آنئذ. و لم أشأ القيامَ به بعدئذ بدم بارد. لأن الثأر المُدبّر[٢٨] قسوة وضعف في الهمة. سئمت تلك المِهنة، لا بسبب الجهد وإنما كنت أرى فيها أشياء تستدعي عقاباً وثواباً مجتمعين. كان إحساسي بذلك أعظم من قدرتي على الإصلاح؛ فعزمت على الإقلاع عنها. فلجأت إلى التوبة، كما يفعل أولئك الذين يُقلعون عن الذنوب حينما يعجزون عن اقترافها، وإن كان تركها آجلاً خيراً من عدمه. أقول إذاً، لما رأيتك ذات ليلة تحمل المصباح بين يدي الصالح ماهوديس، ووجدتك سعيداً، وتعمل بصدق وطهارة، مُلئت غبطة، وأردت أن أتبع خطاك. وبهذه النية الحسنة اعترضتُ طريق ماهوديس الذي ما عتم أن اختارني رفيقاً لك، وجاء بي إلى هذا المشفى، وما حدث لي فيه، ليس ضئيلاً خاصة ما سمعته من أربعة مرضى جمعهم الحظّ والفاقة في هذا المشفى، في غرفة واحدة وأسرّة متجاورة. واعذرني إن قصصت ما دار بينهم. فالقصة قصيرة وليس فيها طول، وتأتي هنا وفق الحاجة.

ثيبيون: نعم، أعذرك. واختم سريعاً. لأن الصباح – كما أعتقد – لن يلبث أن يطل علينا.

٢٨- يقصد الثأر الذي يحضر له صاحبه بعناية متحيّناً فرصة أفضل أو غِرّة ممن يطلبه، فيدركه. (المترجم).

برغانثا: أقول، على الأسرة الأربعة الموجودة في طرف القاعة، كان يرقد: كيميائي، وشاعر، ورياضي. ثم أحد ممن نسمّيهم محققي أو واضعي ضرائب.

ثيبيون: أذكر أني رأيت هؤلاء الناس.

برغانثا: ذات يوم من أيام الصيف الماضي، كانت نوافذ المشفى مغلقة وقت القيلولة، وكنت أنشد الرطوبة تحت سرير أحدهم. راح الشاعر يشكو بحزنٍ حظه. فسأله الرياضي مما يشكو؛ فأجابه بأنه يشكو حظه الرديء قائلاً: «كيف لا أشكو، وقد حفظت ما أوصى به هوراس في كتابه «حول الشعر» بألا يرى العمل الأدبي النور إلا بعد انقضاء عشر سنوات على تأليفه. وها أنا ذا قضيت عشرين عاماً في تأليف كتابي، ومايزال راقداً منذ اثنتي عشرة سنة. موضوعه كبير، وتصنيفه عجيب وجديد؛ شعره خطير ودقيق في سرد الأحداث؛ رائع في تقسيمه لأن المقدمة تنسجم مع المتن والخاتمة، فتشكل بذلك قصيدة رفيعة، رنّانة ملحمية ثمينة ممتعة. ومع ذلك لم أعثر على أمير أتوجه بالكتاب إليه ليرعاه. أقول: أمير ذكي، كريم وعظيم. فيا لبؤس هذا العمر! ويا لرداءة هذا العصر! «ماذا يتناول الكتاب» – سأله الكيميائي –. فأجاب الشاعر: يتناول ما ترك كتابته رئيس أساقفة توربين حول الملك آرثر الإنكليزي، مع إضافات أخرى حول: «تاريخ البحث عن الكأس المقدّسة». كل ذلك مكتوب بشعر حماسي، بعضه موزون، وبعضه مرسل. لكنه كله منبور، والنبرة على الأسماء دون أن أقبل فعلاً واحداً بينها». وعلى ذلك علّق الكيميائي: «فهمي قاصر في موضوع الشعر؛ لذلك، لا أستطيع تقدير حجم مصيبتك التي تشكوها. لكنها، وإن كانت كبيرة، فهي لا تضاهي مصيبتي. فلولا افتقاري إلى الأدوات،

وإلى أمير يدعمني ويقدم لي الحوائج التي يتطلبها علم الكيمياء، لكان الذهب يتدفق من بين أصابعي؛ بل لأصبحت أغنى من ميداس[٢٩] وكراسوس وكريسوس». وهنا تدخل الرياضي قائلاً: «أقمت يا صديقي الكيميائي، بتجربة لتحويل المعادن إلى ذهب وفضة؟» «لم أقم بذلك حتى اليوم. - أجاب الكيميائي - لكنني، في الواقع أعرف أن استخرجهما. وما كنت أحتاج غير شهرين للانتهاء من حجر الفلاسفة الذي يحوّل الأحجار إلى ذهب وفضة». فقال الرياضي: «لقد بالغتما كثيراً بوصف مصيبتيكما. فأولكما لديه كتاب يستطيع التوّجه به لمن يشاء. وثانيكما لديه القوّة الكامنة لاستخراج الحجر الفلسفي. لكن، ماذا أقول عن مصيبتي التي ليس لها حدّ تنتهي عنده؟ منذ اثنين وعشرين عاماً وأنا أسعى لإيجاد النقطة الثابتة؛ فما إن أقبض عليها هنا، حتى تخرج من يدي هناك. وإذا بدا لي أني عثرت عليها، ولا يمكن أن تفلت مني بأية طريقة، أجد نفسي بعيداً عنها؛ فأُصاب بالدهشة وأُحرم من تذوق هذه النعمة. وهذا ما يقع لي بالنسبة لتربيع الدائرة. فلطالما أصبحت على قيد أنملة من إيجاده، حتى لا أعرف، ولا أستطيع التفكير كيف لم يصبح في جيبي. وهكذا عذابي، يشبه عذاب تانتالو[٣٠] الذي كان قريباً من الثمرة، لكنه مات من الجوع. وكان على حافة الماء وهلك عطشاً. أحياناً أحسب أنني دخلت مجال الحقيقة، وفي لحظة واحدة أجدني جدّ بعيد عنها؛ وأبدأ صعود الجبل من جديد، وقد كنت هبطت

٢٩- حسب الميثولوجيا الإغريقية، ملك فريجيا، منحه ديونيسيوس القدرة على تحويل كل ما يلمسه إلى ذهب. (المترجم).

٣٠- ملك ليديا الذي كشف سرّ زيوس فعوقب عقاباً صارماً بأن يقف وسط بحيرة يبلغ ماؤها شفتيه لكنه يبتعد عنهما كلما همّ أن يشرب. (المترجم).

منه لتوّي. فيذهب عنائي عبثاً كأني سيزيف جديد». حتى هذه اللحظة، ظل المسؤول المالي، يلزم جانب الصمت. لكنه قطع حبل صمته هنا قائلاً: «أربعة شكائين جمع بينهم الفقر في هذا المشفى، وكأنهم يرفعون شكواهم إلى السلطان التركي. إني أنكر وظائف وأعمالاً لا تقوم بأود أصحابها ولا تطعمهم. أنا، أيها السادة، محقّق ضرائب ولقد رفعت إلى جلالته في أوقات مختلفة كثيراً من مطارح التكليف وكلها في مصلحته ولا تضر بالمملكة. ولدي الآن، مذكرة أرجوه فيها أن يعين شخصاً أنقل إليه مطرح تكليف جديداً يكون فيه إصلاح للشؤون المالية. لكنني، على ضوء المذكرات الأخرى، أحسب أن هذه المذكرة سيكون مصيرها أيضاً إلى حيث ألقت رحلها. ولكيلا تعدوني أحمق، سأفصح لكم عنها، وهي: الطلب إلى مجالس البلديات أن يرغموا رعايا جلالته ممن تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والستين، على الصيام يوماً واحداً في الشهر مقتصرين فيه على الماء والخبز. وما يُنفق في ذلك اليوم على الفواكه واللحم والسمك والخمر والبيض والخضار، يُوفّر ويُقدّم نقداً إلى جلالته دون أن ينقص منه قرش واحد تحت طائلة حلف اليمين. وخلال عشرين عاماً يتحرر الملك من مشاكله وأعبائه المالية. فإذا صحّت حساباتي، فإنّ في إسبانيا أكثر من ثلاثة ملايين شخص في ذلك العمر، ما عدا المرضى والعجائز والصبيان الذين لن يكلّوا عن الإنفاق. وإذا حسبنا معدل الإنفاق بالحد الأدنى، يحتاج الفرد في اليوم والواحد إلى ريال ونصف الريال. وأنا أقول: ريال واحد يكفي، ولا يمكن أن يقلّ عن ذلك ولو أكل الحلفا. أيبدو لكم، يا سادة، أمراً بخساً أن يدّخر الملك كل شهر ثلاثة ملايين ريال؟ وفي ذلك فائدة أيّما فائدة للصائمين. لأنهم بالصوم يتعبّدون الله ويخدمون الملك. وفي الصوم منافع لصحتهم. هذي هي الضريبة خالصة. ويمكن أن تقوم الكنيسة

بجبايتها، فتختصر أجور الجباة الذين يدمرون المملكة». ضحكوا جميعاً من الضريبة ومن مقترحها. وضحك هو نفسه من حماقاته. ودهشت مما سمعت. وعجبت لأصحاب هذه الفكاهة كيف يأتون ليموتوا في المشافي.

ثيبيون: أنت على صواب يا برغانثا. انظر إن كان بقي عندك شيء تقوله.

برغانثا: شيئان فقط أنهي بهما حديثي، لأن النهار لاحت تباشيره. سرت ذات يوم، وزميلي الأكبر لطلب الصدقة من بيت حاكم هذه المدينة. وهو سيد كبير، وتقيّ جداً؛ فوجدناه وحيداً. وخطر لي أن أنتهز هذه الفرصة لأنبهه إلى بعض الأمور التي سمعت عجوزاً مريضاً يذكرها في المشفى من أجل إيجاد علاج للفتيات الضائعات المتسكعات اللاتي يتجنبن العمل، فيقعن في الموبقات؛ وهي موبقات كبيرة ملأت المشافي بالهالكين الذين يتبعونهن. إنه وباء[٣١] صعب يتطلب علاجاً سريعاً وفعّالاً، أقول، أردت أن أنقل إليه ذلك، فرفعت صوتي ظناً مني أني قادر على النطق. وبدلاً من ألفظ كلمات متّسقة، نبحت نباحاً سريعاً، وصوّتُ عالياً مما أغضب القاضي، وصاح بخدمه أن أطرد من القاعة بالعصي. هرع أحد الخدم على نداء سيده، وليته كان أصمّ حينئذ، فأمسك بسيخ من نحاس وقع في يده، وصلاني به بين أضلاعي، ومازلت أعاني عقابيل تلك الضربات حتى اليوم.

ثيبيون: أوَشَكوْتَ ذلك يا برغانثا؟

٣١- لعله يشير إلى الأمراض الجنسية التي تفشّت في إسبانيا وأوروبا بعد اكتشاف أمريكا. (المترجم).

برغانثا: و لم لا أشكو، إذا كنت ماأزال أتألم منها حتى هذه الساعة، وإن بدا لي أن نيتي الحسنة ما كانت تستحق هذا العقاب.

ثيبيون: انظر يا برغانثا: لا ينبغي لأحد أن يدخل إلى حيث لا يُدعى. ولا أن يقوم بعمل لا يعنيه البتة. وعليك أن تعتبر أن نصيحة الفقير لا تُقبل مهما تكن جيدة. وليس على الإنسان البسيط أن يتطلع إلى تقديم النصيحة للكبار، أو الذين يحسبون أنفسهم أنهم يعلمون كل شيء. فالمعرفة عند الفقير مغمورة، لأن الحاجة والبؤس ظلال وسحب تعتّم عليها. وإذا ما انجلت وتبيَّنت، حُكم عليها بالحمق وعوملت بازدراء.

برغانثا: أنت على صواب. وقد وقر في ذهني أني سأتبع نصائحك من الآن فصاعداً. كذلك، دخلت ذات ليلة، بيت سيدة راقية كان بين ذراعيها كليبة من تلك المسماة «كلاب التنانير». كانت صغيرة جداً، حتى يمكن إخفاؤها في ثنايا الحضن. وما إن لمحتني حتى نزلت من بين ذراعي سيدتها وهجمت عليّ نابحة بشراسة شديدة. و لم تنثنِ حتى عضتني في ساقي. التفت ناظراً إليها بأدب وغضب. وقلت في نفسي: «لو أمسكت بك، أيها الحييوين القميء في الشارع، فإمّا لا أعيرك انتباهاً، أو أمزقك إرباً إرباً بين أسناني»، ورأيت أنه حتى الجبناء وضعاف الهمة يصبحون شجعاناً وقاحاً حين يجدون من يحميهم، ويجرؤون على إهانة من هو أقوى منهم.

ثيبيون: دلالة على هذه الحقيقة التي نطقت بها يقدمها لنا صغار الناس الذين يصبحون جريئين في وقاحتهم ما استظلوا بظل أسيادهم. لكن، إذا عصف الموت أو حادث عارض بالشجرة التي يستظلون بها، انكشفت وتجلت حينئذ ضآلة شأنهم، لأنهم لا يساوون أكثر من الثياب

التي يقدمها لهم أسيادهم وأولياء أمورهم. فالفضيلة تظل هي هي دائماً؛ والفهم السليم يبقى هو هو، على كل حال، عارياً أم مكسوّاً، منفرداً أم مجتمعاً. حقاً قد يشكو هذا الفهم من تقدير الناس له، لكن ليس في الواقع الحقيقي، واقع استحقاقه وقيمته. ولْنضعْ بهذا نهاية لهذا الحديث، فالنور الذي يتسرب من هذه الشقوق يبين أن النهار ارتفع كثيراً. والليلة القادمة، سيكون دوري في قص سيرتي عليك، إن أُبقيت لنا نعمة الكلام الكبرى.

برغانثا: ليكن ذلك، واحرص على أن توافيني في هذا المكان نفسه.

نهاية الحوار واستيقاظ الضابط، جاءا في وقت واحد. قال المجاز:

– لئن كان هذا الحوار مُتخيلاً ولم يحدث أبداً، فإنه يبدو لي جيد التأليف. ويمكن للسيد الضابط أن يتابع الحوار الثاني. – بهذا الرأي – أجاب الضابط – سأتشجع، وأكون مستعداً لكتابته دون أن أشتبك معك في نقاش حول إن كانت الكلاب تتكلم أم لا.

وعلى ذلك أجاب المجاز:

– سيدي الضابط، لن نعود إلى هذه المناقشة. أنا فهمت تخيّل «الحوار» والإبداع فيه، وكفى! هيا بنا إلى الإسبولون، لنمتع أنظار الجسم كما متعنا أنظار الفهم.

– هيا بنا – قال الضابط.

وعلى ذلك انطلقا.

الفهرس



ثربانتس يجمع بين فنّي عصر النهضة وعصر الباروك. فهو بتكوينه الثقافي والفكري ينتمي إلى عصر النهضة. فالمثالية والأفلاطونية، والإيمان بالطبيعة، سمات تصبغ جانباً هاماً من أدبه. لكن ظروف حياته والأحداث التاريخية في عصره، غطت مع مرور الزمن على «رموز النهضة»، وقادته إلى فكرة خيبة الأمل الباروكية. فموقف ثربانتس النقدي والريبي ووعيه «بالقيمة المزدوجة للأشياء يمثل خطوة متقدمة نحو الباروكية». ومع ذلك، لا الشك ولا خيبة الأمل دفعت به إلى التشاؤم «فتجربته المؤلمة لم تولد عنده مواقف سلبية». فظلت فكاهته سليمة خالية من المرارة؛ وهي بدلاً من أن تهدم، «ترفع وتُعلي من شأن كل ما تلمسه لأنها تتجذر في إحساس من الفهم الصحيح».

أسلوبه ولغته يقفان أيضاً بين عصري النهضة والبارّوك. فهو بميله إلى ما هو سهل مطبوع، وبعيد عن التكلف والتعقيد، يمتثل لقواعد عصر النهضة، لكنه في بعض السمات كالتضاد المستخدم في الدون كيخوته بكثرة، «ينبئ بما ستكون عليه أساليب عصر الباروك».

كتب ثربانتس الشعر والقصة والرواية والمسرحية لكنه نبغ في الرواية والقصة ومسرح الإنترميس.

هاتان القصتان / «زواج بالخديعة» و«حديث كلبين» / تشكلان عملاً واحداً، وهما مأخوذتان من مجموعة (القصص المثالية) التي تبلغ خمس عشرة قصة. أثبتنا مقدمة ثربانتس للمجموعة كلها، ثم مقدمة الناقد آ. بلبوينا الخاصة بهاتين القصتين المذكورتين.


ISBN 978-2-843091-16-2

9 782843 091162